

الجهد المبذول

في

شرح ثلاثة الأصول

شرحه

أبو عبد الرحمن خليل بن عبد الله الحمادي

أهمية هذه الرسالة

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأرسل رسله مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن من أعظم ما يعتني به العبد في حياته هو تحقيق التوحيد ومعرفة العقيدة الصحيحة التي جاء بها رسول الله ﷺ، إذ هي أصل الدين، وأساس النجاة، ومفتاح السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد اعتنى علماء الإسلام بتقريب مسائل التوحيد وبيان أصوله، ومن ذلك رسالة "ثلاثة الأصول وأدلتها" للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وهي من المتون التي عني بها أهل العلم شرحاً وتعليماً، لما تضمنته من مسائل عقديّة عظيمة، بطريقة مختصرة واضحة، يسهل حفظها على الكبير والصغير.

وتتضح أهمية هذه الرسالة حين تعلم أنها تتكلم عن أسئلة القبر التي يسأل عنها العبد أول لحظات نزوله إلى قبره.

ومعلوم أن القبر أول منازل الآخرة فمن سعد فيه فهو فيها بعده أسعد، ومن شقي فيه فهو فيها بعده أشقى؛ وقد قال رسول الله ﷺ: ((القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد

منه)) (١).

وقد جاء ذلك مصرحاً به في حديث البراء بن عازب عند أبي داود وغيره، أن النبي ﷺ قَالَ: ((وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ " قَالَ: " فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ)).

فمن نجح في هذا الاختبار سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ومن خسر فيه شقى شقاء لا يسعد بعده أبداً.

فعرف بهذا أهمية الاعتناء بهذه الأصول غاية العناية.

وكان مما يأخذه طالب العلم في بداية دراسته للتوحيد هو هذه الرسالة؛ فقد بذلت الجهد في شرحه شرحاً يستفيد منه طالب العلم، وأسأل الله أن ينفعنا بما نقول ونكتب، وأن يرزقنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى.

والحمد لله رب العالمين.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.

مقدمات الرسالة

صُدرت رسالة ثلاثة الأصول بثلاث رسائل نافعة عظيمة للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هي قواعد في الدين:

الأولى: في وجوب العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

الثانية: في توحيد الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء.

الثالثة: في بيان التوحيد وضده.

قال المؤلف رحمه الله: ((قررت ثلاثة الأصول: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية والولاء والبراء، وهذا هو حقيقة دين الإسلام))^(١). اهـ

(١) الدرر السنية (١١٧/١) وينظر حاشية ثلاثة الأصول للشيخ عبد الرحمن بن قاسم ص ٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

ابتدأ المؤلف رحمه الله رسالته بالبسملة لأمر عدة:

١. اقتداءً بالكتاب العزيز؛ حيث بُدئ بالبسملة.

قال ابن حجر رحمه الله: ((أَوَّلُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ فَطَرِيقُ التَّائِسِيِّ بِهِ الْإِفْتِتَاحُ بِالْبِسْمَلَةِ وَالْإِقْتِصَارُ عَلَيْهَا)) (١). اهـ

٢. تأسيساً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته؛ فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ بعث بكتاب يقول فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله...)) الحديث (٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ((وَقَدْ جَمَعْتُ كُتُبَهُ ﷺ إِلَى الْمُتْلُوكِ وَغَيْرِهِمْ فَلَمْ يَقَعْ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا الْبَدَاءُ بِالْحَمْدِ بَلْ بِالْبِسْمَلَةِ)) (٣). اهـ

وافتح البخاري رحمه الله صحيحه بقوله: ((بسم الله الرحمن الرحيم كتاب بدء الوحي)).

٣. البداءة بها للتبرك والاستعانة على ما يهتم به.

قال ابن كثير رحمه الله: و ((بسم الله)) لها بركة، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. اهـ (٤)

(١) فتح الباري (١ / ٨)

(٢) رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي

(٣) فتح الباري (٨ / ٢٢٠).

(٤) تفسير ابن كثير (١ / ١٢٠).

واقصر على البسملة لأنها من أبلغ الثناء والذكر. ^(١)

فيكون التقدير بسم الله أولف حال كوني مستعينا بذكره متبركا به.

لفظ الجلالة ((الله)):

علم على الباري جل وعلا؛ وهو أعرف المعارف الجامع لمعاني الأسماء الحسنى.

و((الرحمن الرحيم)) اسمان له سبحانه وتعالى مشتقان من الرحمة، و((الرحمن)) مختص بالله تعالى فلا يتسمى به غيره؛ أما ((الرحيم)) فيتسمى به المخلوق.

قال ابن القيم رحمه الله: ((الرحمن)) دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، و((الرحيم)) دالٌّ على تعلقها بالمرحوم، فالأول دالٌّ على أن الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء قط ((رحمن بهم))؛ فعلم أن ((رحمن)) هو الموصوف بالرحمة، و((رحيم)) هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها ^(٢). اهـ

(١) حاشية الأصول الثلاثة (ص: ٨)

(٢) بدائع الفوائد (٢٨/١).

اعلم - رحمك الله - أنه يجب علينا تعلُّمُ أربع مسائل:

الأولى: العلم؛ وهو معرفة الله ومعرفة رسوله ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

بدأ المؤلف رحمه الله بمقدمة بينت أهمية أربعة أمور هي قواعد ينبغي معرفتها:

١. معرفة أجوبة أسئلة القبر الثلاثة بأدلتها.

٢. العمل بذلك العلم.

٣. الدعوة إلى العلم والعمل.

٤. الصبر على الأذى فيه.

قال ابن القيم رحمه الله: ((جهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلْمُهُ، شقيت في الدارين.

الثانية: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فَمَجَرَّدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ
إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ يَنْفَعَهَا.

الثالثة: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَتَعْلِيمِهِ مَنْ لَا يَعْلَمُهُ، وَإِلَّا كَانَ مِنْ

الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهدى والبيّنات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنْجِيهِ من عذاب الله.

الرابعة: أن يُجَاهِدَهَا على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمّل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربّانيين)). اهـ^(١)

وهذه الأمور الأربعة تحققت في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتختلف مقامات أتباعهم عند الله بقدر تحقيق تلك الأمور المهمة؛ بل إن هذا الدين لا يقوم إلا بتحقيق أهله لهذه المهمات الأربع.

قال ابن القيم رحمه الله: ((المراتب أربع، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها معرفة الحق. الثانية: عمله به. الثالثة: تعليمه من لا يحسنه. الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه)).^(٢) اهـ

قوله اعلم: فعل أمر يؤتى به للاهتمام والحث على تدبر ما بعدها.

وما أقره المصنف هنا من أصول الدين حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتني به أشد الاعتناء.

قوله: رحمك الله: أي: غفر الله لك ما مضى ووفقك وعصمك فيما يستقبل، وإذا قرنت الرحمة بالمغفرة فالمغفرة لما مضى، والرحمة: سؤال السلامة من ضرر الذنوب وشرها في المستقبل.

قوله: ((أنه يجب علينا)): أما معرفة أجوبة القبر الثلاثة بأدلتها فواجب

^(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٩) الرسالة

^(٢) مفتاح دار السعادة (١ / ٥٦).

على كل أحد، وأما بقية ما ذكره في هذه الرسالة فمنه ما هو واجب عيني يجب على كل أحد معرفته، ومنه ما هو واجب كفائي؛ كمعرفة مُكث الرسول ﷺ في مكة ونحو ذلك.

ومعنى الوجوب العيني أن يجب على كل أحد بعينه، ومعنى الوجوب الكفائي: أن يسقط الإثم عن الباقيين إذا فعله من يكفي.

قوله: تَعْلَمُ أربع مسائل

التعلم: معناه تحصيل العلم، والعلم: هو معرفة الهدى بدليله.

وتعلم العلم الشرعي على قسمين:

الأول: فرض عين يجب على كل مكلف كتعلم أركان الإسلام الخمسة.

الثاني: فرض كفاية؛ بمعنى أنه واجب على جميع المسلمين فإذا قام به بعضهم سقط الإثم عن الباقيين، كتعلم علم الفرائض والأصول والنحو

الأولى: العلم.

المراد به العلم الشرعي، والمقصود به ما كان تعلمه فرض عين، وهو كل علم يحتاج إليه المكلف في أمر دينه، كأصول الإيمان وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرمات، وما يحتاج إليه في المعاملات، ونحو ذلك مما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب عليه العلم به.

وهو معرفة الله ومعرفة رسوله ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

خص الشيخ رحمه الله هذه الأمور؛ لأنها هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا عليها، وهي التي يسأل عنها العبد في قبره.

قوله: معرفة الله وتكون بالإيمان به وعبادته وحده لا شريك له والقيام بحقه جل وعلا، وسبيل ذلك التفكير في آيات الله الشرعية وتدبرها والعمل بها، والتفكير في آيات الله الكونية والاعتبار بها.

قوله: ومعرفة نبيه وتكون بالإيمان به واتباع هديه.

قوله: ومعرفة دين الإسلام تكون بتعلم العلم الشرعي الذي هو مبني على القرآن والسنة النبوية.

والمقصود بالإسلام هنا هو الإسلام الخاص؛ وهو الدين الذي بعث الله نبيه محمداً به وجعله خاتمة الأديان لا يقبل من أحد دين سواه، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ٤، وقال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}

قوله بالأدلة:

أي لا بد من معرفة الحق بدليله.

والمعنى أنه يكون متبعاً للكتاب والسنة، فإذا أشكل عليه شيء سأل أهل العلم عنه. (١)

(١) قال العلامة العثيمين: يجب على من لا علم عنده، ولا قدرة له على الاجتهاد: أن يسأل أهل العلم؛ لقوله تعالى: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [الأنبياء: ٧]. ولم يأمر الله تعالى بسؤالهم إلا من أجل الأخذ بقولهم، وهذا هو التقليد.

لكن الممنوع في التقليد أن يلتزم مذهباً معيناً يأخذ به على كل حال ويعتقد أن ذلك طريقه إلى الله - عز وجل - فيأخذ به، وإن خالف الدليل.

والناس في ذلك ثلاثة أقسام:

الأول: المجتهد، وهو من عنده القدرة على استنباط الأحكام من نصوص الكتاب والسنة مباشرة، فهذا يتبع ما أداه إليه اجتهاده، ويحرم عليه التقليد.

الثاني: طالب العلم المتمرس في طلب العلم حتى صار لديه القدرة على الترجيح بين أقوال العلماء، وإن كان لم يصل إلى درجة الاجتهاد، فهذا لا يلزمه أن يقلد أحدا من العلماء، بل يقارن بين أقوال العلماء وأدلتها ويتبع ما ظهر له أنه القول الراجح.

الثالث: العامي الذي ليس عنده حصيلة من العلم الشرعي تؤهله للترجيح بين أقوال العلماء، فضلا عن الاجتهاد، فهذا فرضه سؤال أهل العلم، فيعمل بقولهم، وهذا هو التقليد. قال الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل/ ٤٣.

فائدة:

يجب على العبد أن يتعلم ما يؤدي به الواجب ويكف به عن المحرم ويتم به معاملاته.

وما زاد على القدر الواجب من العلوم الشرعية فهو فرض كفاية على

وأما من له قدرة على الاجتهاد؛ كطالب العلم الذي أخذ بحظ وافر من العلم، فله أن يجتهد في الأدلة، ويأخذ بما يرى أنه الصواب، أو الأقرب للصواب.

وأما العامي وطالب العلم المبتدئ، فيجتهد في تقليد من يرى أنه أقرب إلى الحق؛ لغزارة علمه وقوة دينه وورعه" انتهى من كتاب العلم، ص ١٥٣

الأمة.

قال ابن عبد البر: (أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع).

قوله: الثانية: العمل به.

والعمل بالعلم على درجات:

الأولى: ما يلزم منه البقاء على دين الإسلام وهو التوحيد واجتناب نواقض الإسلام.

الثانية: ما يتأكد وجوب العمل به كالفرائض واجتناب الكبائر.

فمن علم وجوب فريضة من الفرائض وجب عليه أداؤها، ومن علم تحريم شيء من المحرمات وجب عليه اجتنابه.

الثالثة: ما يستحب العمل به وهو نوافل العبادات واجتناب المكروهات.

وهناك من العمل بالعلم ما هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين.

الثالثة: الدعوة إليه.

والدعوة لا تكون إلا بعلم.

وأول من يبدأ به المسلم في دعوته القولية والفعلية بأهله وأحق الناس به من والدين وأبناء وزوجة وأخوة وأقارب، ويكون ذلك بالحكمة

واللين والكلام الحسن.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

أي يصبر على تعلم العلم، ويصبر على العمل به ويصبر على الدعوة إليه. وسنة الله جل وعلا في خلقه أن من تعلم العلم وعمل به ودعا إليه فإنه يؤذى، والأذى عام فممنه التعب والنصب وممنه المعارضة والمخالفة وممنه ما هو أشد من ذلك كالسب والشتم وافتراء الكذب على الداعي والضرب والقتل.

والدليل: قوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

قال الشافعي رحمه الله تعالى: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم.

وقال البخاري رحمه الله تعالى: (باب العلم قبل القول والعمل).

والدليل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

استدل المصنف رحمه الله على المسائل الأربع السالفة الذكر بسورة العصر.

فدليل المسألة الأولى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولازم الإيمان بالشيء العلم به.

الإيمان لا يكون صحيحاً إلا بعلم، وذلك لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ وكل هذا يستلزم العلم، فلا يمكن أن تعمل إلا بعد أن تعلم ماذا ستعمل، وماذا تعتقد في دين الله، ولهذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتعليم الناس أمور دينهم.

ويؤيد ذلك الدليل الثاني الذي ذكره المصنف وهو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فبدأ بالعمل قبل العلم.

ولهذا استدل البخاري رحمه الله بهذه الآية على وجوب البداءة بالعلم

قبل القول والعمل؛ فترجم لذلك، وذلك أن الله أمر نبيه ﷺ بأمرين: بالعلم ثم العمل.

ويوضح ذلك أيضًا:

أنَّ العمل الصالح له شرطان؛ حتى يكون على وفق الشريعة ويكون مقبولا: وهما الإخلاص والمتابعة لرسول الله ﷺ، ولا يمكن أن يعلم الإنسان أن عمله على وفق الشريعة إلا بالعلم. فتنبه لهذا وخذ به.

وقول البخاري: (باب العلم قبل القول والعمل):

قَالَ بِنُ الْمُثَنَّى: "أَرَادَ بِهِ أَنَّ الْعِلْمَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فَلَا يُعْتَبَرَانِ إِلَّا بِهِ فَهُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِمَا لِأَنَّهُ مُصَحِّحٌ لِلنِّيَّةِ الْمُصَحِّحَةِ لِلْعَمَلِ". اهـ

ودليل المسألة الثانية في قوله سبحانه: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فبعد أن علموا عملوا.

والمراد بالعمل الصالح: أفعال الخير كلها سواء كانت ظاهرة أو باطنة، وسواء كانت متعلقة بحقوق الله تعالى، أو متعلقة بحقوق العباد، وسواء كانت من قبيل الواجب أو كانت من قبيل المستحب إذا خالصة صواباً.

ودليل المسألة الثالثة قوله تعالى: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ} المراد بالحق هو الإيمان بالله والعمل الصالح.

قال ابن القيم رحمه الله: ((وتواصوا بالحق، وصّى به بعضهم بعضاً تعليماً وإرشاداً))^(١) اهـ.

فائدة:

(١) مفتاح دار السعادة (١/٥٦).

وجه تخصيص التواصي بالحق بالذكر مع أنه داخل في العمل الصالح لأمرين:

١. لأهميته وأثره في حصول النجاة التامة.
٢. للتدليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنَّ العبد كما أنَّه يسعى في خلاص نفسه ونجاتها، فإنَّ غيره من الناس لهم الحق عليه في دعوتهم إلى هذا الحق. والله أعلم.

ودليل المسألة الرابعة قوله تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} جميع أنواع الصبر، الصبر على طاعة الله وأداء فرائضه والقيام بحقوقه وحقوق عباده، والصبر عن معصية الله؛ فلا بد للإنسان أن يصبر لئلا يقع في المعصية، والصبر على المصائب وما ينزل من أقدار الله.

قوله: قال الشافعي: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم.

لعل المصنف ذكر قول الشافعي رحمه الله بالمعنى إذ أن كثيرا ممن ذكر هذه المقولة ذكرها بغير هذا اللفظ. ^(١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وروي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم. وهو كما قال).

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: (قال الشافعي، رحمه الله: لو تدبر

^(١) نبه على ذلك شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله في شرحه لنظم الدرر في السيرة للعراقي الدرس السبعون فقال: هذا اللفظ منكر وقد يكون الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتبه من حفظه، أو نقله من أحد المصادر غير الموثوقة. ربما والله اعلم، واللفظ الصواب لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم. اهـ

الناس هذه السورة لكفّتهم). وبه ذكره ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة.

فلما كانت هذه السورة قد جمعت بين العلم والعمل والدعوة عليه والصبر على الأذى فيه، وبينت أن من اجتمعت فيه هذه الأمور الأربعة فهم الناجون من الخسارة بأكملها؛ كان جدير أن يقال فيها ما ذكره الشافعي رحمه الله.

ولهذا قال شيخ الإسلام:

"وَهُوَ كَمَا قَالَ -أي الشافعي-، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ خَاسِرُونَ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مُؤْمِنًا صَالِحًا؛ وَمَعَ غَيْرِهِ مُوصِيًا بِالْحَقِّ مُوصِيًا بِالصَّبْرِ". اهـ^(١)

فهذه السورة بينت للمسلم منهاج النجاة من الخسران، فمن أخذ بأسباب النجاة نجا، ومن تركها هلك وخسر، فهي حجة بينة كافية.

توضيح لقول الشافعي رحمه الله:

مراد الشافعي أن هذه السورة كافية شافية في بيان طريق النجاة ومنهاج السير إلى الدار الآخرة؛ ويكون ذلك بالجمع بين العلم والعمل والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه.

وليس معنى كلامه رحمه الله أن هذه السورة تكفي عن القرآن كله من جميع الوجوه وإنما هي حجة تدل على أصول الخير والعلم وتحصيله. اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلّم ثلاث هذه

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥٢)

المسائل والعمل بهن.

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا؛ فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار. والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

هذه الرسالة الثانية التي قدم بها الشيخ بين يدي رسالة الأصول الثلاثة.

ذكر فيها ثلاث مسائل:

أولاً: توحيد الربوبية، ويسمى بتوحيد الرب في أفعاله.

ثانياً: توحيد الألوهية، ويسمى بتوحيد الإلهية، ويسمى بتوحيد العبادة.

ثالثاً: مسألة الولاء والبراء.

وهذه المسائل الثلاث عليها يدور الدين وهي أصل أصوله.

وقد أجمع المسلمون على وجوب تعلم هذه المسائل الثلاث الآتية، وقد نقل الإجماع في ذلك جماهير أهل العلم، ومنهم ابن بطة العكبري في ((الإبانة الكبرى))، وشيخ الإسلام ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)).

فقوله: اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة: المقصود به من المكلفين، سواء أكانوا جنًا أو إنسًا، ذكورًا أو إناثًا، أحرارًا أو عبيدًا.

وقوله: تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل بهن: أي معرفتهن واعتقاد

معانيهن والعمل بمدلولهن، فإن العمل هو ثمرة العلم.

وإنما كان يجب أن يتعلم كل مسلم ومسلمة هذه الثلاث أن يعمل بهن؛ لأن فيها بيان أصل الدين وقاعدته.

وبدأ بتوحيد الربوبية لأنه مدخل إلى توحيد الربوبية ويقرر به الخلق.

ولهذا قال: الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا.

فتوحيد الربوبية هو توحيد الله سبحانه وتعالى بأفعاله، ومن أفعال الله التي يجب أن يُفرد بها: الخلق والرزق والتدبير، وهي المذكورة هنا.

فقوله: الأولى: أن الله خلقنا

والدليل على ذلك قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وقوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}.

والمقصود بخلقنا: أي أوجدنا من العدم.

قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا} [الإنسان: ١]، وقال سبحانه: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}

ولما كان كل مخلوق لا بد له من خالق، فقد قررهم الله سبحانه وتعالى بقوله: {أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}.

فكانه تعالى يقول: لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح.

الأولى: أن يكونوا خلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلاً.

الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم. ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، وبطلانها ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه.

والثالث: هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جلا وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جل وعلا.

ولما كان سبحانه هو الذي خلقهم؛ فقد تكفل سبحانه وتعالى بأرزاقهم.

فقال رحمه الله: ورزقنا:

ولهذا يقول الله سبحانه: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}.

فهذه الآية تفيد اختصاص الله تعالى بالخلق والرزق.

ولهذا ذكر الله الرزق بعد ذكر الخلق فقال سبحانه: **سَمِحَ وَمَا خَلَقَتْ آلَ جِنٍّ وَآلَ إِنْسٍ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦** مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُوا ٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَبِيرِ ٥٨ سَجَى.

قوله: ولم يتركنا هملاً:

قوله (هملاً) معناه سُدى وعبثاً.

فالهمل والسدى والعبث بمعنى واحد، وهو المتروك الذي لا يؤمر ولا ينهى.

فلما كان كذلك مِنْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا؛ فقد دبر شؤون الخلق

سبحانه ولم يتركهم هملاً وهذا من مقتضى حكمته.

قال سبحانه: سمح أفحسبتم أنها خلقناكم عبثاً مسجى، أي: هملاً
وسدى لا تؤمرون ولا تنهون، كما قاله مجاهد ومقاتل وقتادة.
وقوله تعالى: { أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى }.

قال مجاهد، والشافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني لا يؤمر ولا ينهى.

فالله سبحانه وتعالى لم يتركنا بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما نحتاجه في ديننا ودنيانا، بل أمرنا ونهانا وبيّن لنا طريق الخير وطريق الهداية، فلم يخلقنا الله سبحانه وتعالى عبثاً وسُدًى.

وبين سبحانه الحكمة من خلق الناس والغاية التي خلقهم لأجلها فقال سبحانه: **سَمِحَ وَمَا خَلَقْتُ آلَ حِجْنَ وَآلَ إِنْسٍ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** مسجى.

وقوله: بل أرسل إلينا رسلاً:

هذا من أدل الأدلة على أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا هملاً، وأنه سبحانه يدبر شؤون عباده بما يصلح به أمر دنياهم وآخرتهم.

فاقتضت حكمة الله أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق، رحمة منه بعباده وإقامة للعدل بينهم، وتبصيراً لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم وحقوق أنفسهم وإخوانهم، وإعانة لهم على أنفسهم، وأعداراً إليهم.

والغاية من إرسال الرسل: طاعتهم واتباعهم فيما جاءوا به عن الله تعالى، قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ }.

قوله: فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]،

وقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وروي البخاري عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى))، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: ((مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى)).

وتكون طاعته ﷺ بالعمل بما أمر به، والانتفاء عما نهى عنه.

وطاعة النبي ﷺ تنقسم إلى واجبة ومستحبة، ومن الواجب ما هو توحيد وتركه شرك وكفر، ومنه ما هو أقل من ذلك.

كما أن معصية الرسول ﷺ تنقسم إلى محرم ومكروه، ومن المحرم ما هو كبيرة، ومنه ما هو صغيرة.

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

تدليل لما ذكره من إرسال الرسل ووجوب طاعتهم.

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ المراد بالرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي يشهد على أعمالكم يوم القيامة،

———— الجهد المبذول في شرح ثلاثة الأصول ————

فيشهد على الكفار بكفرهم، وعلى المنافقين بنفاقهم من أهل الشرك، وعلى
المؤمنين بإيمانهم.

الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

المسألة الأولى في توحيد الربوبية، ولأن توحيد الربوبية دال على توحيد الألوهية ومستلزم له.

فإن كان الله سبحانه وتعالى هو خالقنا ورازقنا ومدبر شؤوننا؛ فهو سبحانه المستحق للعبادة وحده، ومن سواه لا يستحق شيئاً منها.

ولهذا قال المؤلف:

الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته

قوله: "لا يرضى" أي أن الله لا يرضى الشرك وإنما يسخطه ولا يريده سبحانه وتعالى إرادة شرعية قال تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر)، أما الإرادة الكونية فإن الله أراده كوناً فوق لحكمة أراده تعالى، ولم يردّه شرعاً.

قوله: "أن يشرك" أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي شركاً. والشرك: بالمعنى العام: أن تجعل لله نداً في الأسماء والصفات أو الربوبية أو الألوهية، وهذا التعريف يدخل فيه شرك الأسماء والصفات وشرك الربوبية وشرك الألوهية.

ويدخل فيه كل نوع من أنواع الشرك، سواء أكان شركاً أكبر، أم كان

شركاً أصغر، سواء أكان شركاً خفياً أم كان شركاً ظاهراً علنياً، فكله لا يرضاه الله - سبحانه وتعالى - .

قوله: (معه أحد): ذكرت على جهة الغالب أي أن الشرك في الغالب لا يقع إلا مع الله؛ ومن باب أولى من كفر بالله، وجحد بالوحيته سبحانه.

قوله: (في عبادته): وهذا بما يسمى الشرك في الألوهية^(١) وذلك لوقوعه في العبادات، وأما إذا وقع في غير العبادات، أي: في ربوبية الله وأفعاله وما إليها، فهذا يسمى بالشرك في ربوبية الله وأفعاله وسبق.

وخصّ بالذكر توحيد العبادة هنا لأمر:

الأول: لأنّه الغالب في شرك الناس في جميع الأمم، وهو الذي بعث الرسل لأجله.

الثاني: لأنه كان متفشياً في زمن الشيخ رحمه الله.

الثالث: لأنه يستلزم غيره من أنواع التوحيد.

قال العلامة العثيمين:

"ألوهية الله فرع عن ربوبيته؛ لأن من تألّه الله فقد أقرّ بالربوبية؛ إذ إن المعبود لا بد أن يكون ربّاً، ولا بدّ أن يكون أيضاً كامل الصفات، ولهذا تجد الذين ينكرون صفات الله عز وجل عندهم نقص عظيم في العبودية؛ لأنهم يعبدون من لا شيء". اهـ شرح حديث جبريل

وقول المصنف: (لا ملك مقرب ولا نبي مرسل): أوردها المؤلف ليبين

^(١) توحيد الألوهية: وهو "إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبدّه ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه".

من باب التفسير على أن الشرك الذي هو صرف نوع من أنواع العبادة إلى غير الله لا يصلح لأي أحد، ولو كان هذا الشيء من المقربين إلى الله أو من أفضل الخلق.

فذكر رحمه الله الملائكة وهم أقرب الخلق إلى الله.

والأنبياء المرسلين، وهم أفضل الخلق عند الله.

فإن كان هؤلاء لا يجوز صرف العبادة لهم فغيرهم لا يصح وقوع العبادة وصرفها إليهم من باب أولى.

وهؤلاء الملائكة والمرسلون لا يرتضون أن يعبدوا من دون الله.

قال الله: وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١).

وقال سبحانه: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)

والملائكة والرسل هم عباد الله لا يستكفون ولا يستكبرون عن عبادة الله، قال الله: لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)

وأدلة ذلك كثيرة ومنها:

قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

قوله وَأَنَّ الْمُسَاجِدَ لِلَّهِ

المساجد يفعل فيها شيان:

دعاء المسألة: وهو سؤال الله جل وعلا.

دعاء العبادة: وهو عبادة الله جل وعلا بأنواع العبادات من الصلاة، والتلاوة، والذكر، والتعلم والتعليم، ونحو ذلك.

قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾.

يشمل نوعي الدعاء؛ دعاء المسألة ودعاء العبادة. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((الدعاء هو العبادة)).

والله لا ينهى عن شيء إلا وهو لا يرضاه سبحانه وتعالى، فالكفر والشرك لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، بل يمقته الله أشد المقت، قال سبحانه: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [سورة الزمر، الآية: ٧].

ويرتضي لهم الإسلام وأن يكونوا موحدين وأن لا يشركوا به شيئاً.

قال الله: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فِرَضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وما أرسل الله الرسل ولا أنزل الكتب إلا لمحاربة الكفر والشرك والقضاء عليها،

قال تعالى: ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

وقوله سبحانه: (أحدًا) نكرة في سياق النهي تفيد العموم، فيكون المعنى: فلا تدعوا مع الله أحدًا كائنًا من كان، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، ومن كان دون ذلك، فمن باب أولى.

والشرك نوعان:

الأول: الشرك الأكبر وهو كل شرك أطلقه الشارع وكان متضمنًا لخروج الإنسان عن دينه.

الثاني: الشرك الأصغر: وهو كل عمل قولي أو فعلي أطلق عليه الشرع وصف الشرك ولكنه لا يخرج عن الملة.

وعلى الإنسان الحذر من الشرك أكبره وأصغره فقد قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به). سورة النساء ٤٨

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالة من حاد الله ورسوله

ولو كان أقرب قريب.

والدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هذه هي المسألة الثالثة التي يجب على المكلف معرفتها، واعتقادها، والعمل بموجبها؛ وهي في الولاء والبراء.

وباب الولاء والبراء باب عظيم من أبواب التوحيد والإيمان، ويجب على كل مسلم أن يتعلمه ويعمل به، وهو واجب ديني ومطلب إيماني من مقتضيات التوحيد ولوازمه، وأصل من أصول العقيدة الإسلامية، ولازم من لوازم (لا إله إلا الله)، ألا وهو باب الولاء والبراء.

فيجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يوالي أهلها ويعادي أعداءها، وألا يتخذ الكافرين أولياء يحبهم ويتولاهم ويصافيههم، بل الواجب عليه أن يُغضهم ويتخذهم أعداءً؛ لأنهم أعداء لله عز وجل، فلا يجتمع إيمان بالله وحب لأعدائه في قلب العبد.

ومفهوم الولاء: هو محبة المؤمنين لأجل إيمانهم ونصرتهم والنصح لهم وإعانتهم، وما يلحق ذلك من حقوق المؤمنين.

ومفهوم البراء: هو بغض أعداء الله من الكفار والمشركين والمنافقين وعداوتهم والبعد عنهم، وجهاد الحريين منهم بحسب القدرة.

فالمسألة الأولى والثانية متعلقة بالشرك والكفر نفسه، والمسألة الثالثة متعلقة بمن تلبس بالشرك.

فإن الله تعالى إذا كان لم يرض الشرك والكفر، فإنه أيضا لا يرضى عن المشركين.

فقوله: الثالثة: أن من أطاع الرسول: أي عمل بأوامره وانتهى عما نهى عنه، واهتدى بهديه واستن بسنته.

قوله: ووحيد الله: أي أفرد الله ووحده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

وهذان هما أصل الدين وقاعدته؛ وهو توحيد الله عز وجل وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويلزم منهما العمل بما تفرع عنهما؛ ومنه الولاء والبراء.

فالتوحيد له جانبان أساسيان:

الأول: عبادة الله عز وجل. **الثاني:** البراءة من الطواغيت والأنداد والشركاء.

ولهذا قال: لا يجوز له موالة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

أي أن من أصول عقيدة الإسلام: أن يوالي العبد أهلها ويحبهم، ويبغض أهل الشرك ويعاديهم.

فمن حقوق التوحيد الولاء لأولياء الله والبراء من أعداء الله.

وقوله: لا يجوز له: أي يحرم عليه.

قوله: موالاته: معناها أن تتخذه ولياً، وأصلها من الولاية، والولاية هي المحبة، فأصل الموالاتة المحبة والمودة.

قوله: من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

أي: عادى الله ورسوله.

والمحادّة: هي المخالفة والمعاندة، والكافر قد حادَّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكأنه في حد، والله ورسوله في حد آخر؛ لأنه في مخالفة ومعاندة ومجانبة لِمَا أمره الله به من التوحيد له عز وجل والاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم

قوله: ولو كان أقرب قريب:

أي من حيث النسب، كأن يكون أباً أو ابناً أو قريباً.

والمعنى أنّه لا يجوز للإنسان أن يتولى أباه المشرّك، ولا أن يتولى آباه المشرّكين ولا أن يتولى أبنائه وبناته المشرّكين، ولا أن يتولى أقاربه من المشرّكين أو الكفار.

فالمؤمن في حد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما الكافر فهو في حد الشيطان وجنوده؛ ولذلك فلا تجوز موالاتة الكافر، ولو كان أقرب قريب.

واستدل المؤلف على هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قوله: يؤمنون بالله واليوم الآخر الإيمان الواجب.

قوله: {يُؤَادُّونَ} أي: يوالون ويحبون من حاد الله ورسوله، وهم الكافرون، وإن كانوا أقرب قريب، فلا يجتمع الإيمان ومحبة أعداء الله، بل لا تجد المؤمنين إلا محادين من حاد الله ورسوله، معادين من عادى الله ورسوله.

وقوله تعالى: {وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} أي: لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا الأقربين، وقوله: {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.

ليس المراد بمن ذكر خصوصهم، وإنما المراد الأقارب مطلقاً، وقدم الآباء لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف، وثنى بالأبناء؛ لأنهم أعلق بهم لكونهم أكبادهم، وثلت بالإخوان؛ لأنهم الناصرون لهم. وختم بالعشيرة؛ لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالباً.

ثم ذكر - سبحانه - أنه جازاهم بخمسة أشياء، وبدأ تعالى بالطفاه الدنيوية فقال - جل وعلا - {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} أي: جمعه في قلوبهم وثبته وأرساه، فهي قلوب مؤمنة مخلصه لا تؤثر فيها الشبه ولا الشكوك {وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ} أي: قواهم {بِرُوحٍ مِنْهُ} أي: بنور وهدى ومدد إلهي، وإحسان رباني، وسماه الله روحاً؛ لأنه سبب للحياة الطيبة. ثم ذكر آثار رحمته الأخروية فقال سبحانه: {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} وهي دار كرامته فيها ما لا

عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر { رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ }
{ هذا استئناف جرى مجرى التعليل، والمعنى: أن الله يُحل عليهم رضوانه
بطاعتهم إياه في الدنيا { وَرَضُوا عَنْهُ } في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة
وما فيها من الكرامات، وهذا على مراتب النعيم.

قال ابن كثير رحمه الله: (وفيه سر بديع وهو أنهم لما أسخطوا الأقارب
والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم
من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم).

فائدة ١: أقسام الناس في الولاء والبراء والحب والبغض أقسام ثلاثة:

الأول: أهل الإيمان والصلاح والاستقامة على طاعة الله: لهم حب
وولاء لا بُغض معه.

الثاني: الكفار والمشركون أيًا كانوا: يُبغضون بغضًا لا حب معه.

الثالث: من يُحِبُّ باعتبار ويبغض باعتبار: يجب باعتبار إيمانه وما عنده
من صلاح وطاعة، ويُبغض باعتبار ما عنده من عصيان (وهم عصاة
الموحدين)، الذين يفعلون المعاصي التي لا تصل إلى حد الكفر، فصاحب
المعصية يجب على ما عنده من إيمان، ويبغض على ما عنده من فسوق
وعصيان.

فائدة ٢: لا يتنافى مع عدم موالاته الكافر أن يعامل الكافر معاملة

حسنة، يتألف بها قلبه ويستميل بها نفسه للدخول في هذا الدين، فيكون
في قرارة نفسه مبغضًا له، وفي المعاملة الظاهرة يحسن إليه تأليفًا لقلبه؛ قال
تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة]:

فائدة ٣: الفرق بين التولي والموالة.

التولي: ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾

[المائدة: ٥١]، ويكون بحب الكافرين وحب دينهم، والفرح

بانتصارهم، والسعي في نصرتهم بغرض ظهور الكفر على الإيمان، وهو

كفر أكبر مخرج من ملة الإسلام.

الموالة: ضابطها أن يحب الكافر لأمر دنيوي، لا لدينه، ولا ينصره

على المسلمين بغرض ظهور الكفر، يحبهم وينصرهم لغرض دنيوي؛ مثل:

المال، الرياسة، حماية منصبه، وهو كبيرة من الكبائر، يترتب عليها نقص

الإيمان الواجب.

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ

أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] فناداهم الله باسم الإيمان مما

يدل على ثبوته لهم.

وقد نهى الله عن الأمرين تولي الكفار وعن موالاتهم.

فائدة ٤: الأمور التي يجوز التعامل بها مع الكفار ولا تدخل في الموالة

المحرمة:

(١) البيع والشراء:

فقد عامل النبي صلى الله عليه وسلم اليهود والمشركون، وباع لهم واشترى منهم، ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي، على ثلاثين صاعاً من شعير.

مما يدل على جواز التعامل مع الكفار بالبيع والشراء، بشرط ألا يكون مما يستعان به على حرب المسلمين؛ كالسلاح ونحوه، وكذلك لا يجوز بيع أو شراء ما هو محرّم في ديننا؛ مثل: الخنزير والخمر، وكذلك لا يجوز ما أعان على معصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

(٢) الإجارة (وهي بيع المنفعة):

فيجوز أن يؤجر كافرًا في الأعمال التي ليس لها فيها ولاية على المسلم؛ (صناعة - زراعة - خدمة - بناء...)، وقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم يهود خيبر في أراضي المدينة ليزرعوها ولهم نصف ما يخرج منها، واستأجر عبدالله بن أريقط دليلًا في الهجرة.

(٣) البر والإحسان معهم:

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومن ذلك البر والإحسان.

الرحمة العامة بهم؛ كإطعامهم وسقيهم ومداواتهم وإنقاذهم من التهلكة؛ قال صلى الله عليه وسلم: ((ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء)).

الصدقة على الفقير منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
[البقرة: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾
[الإنسان: ٨]، والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا كافرًا.

صلة القريب الكافر؛ كالوالدين والأخ بالزيارة والهدية ونحوها في غير محبة
ومودة؛ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: "قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي - وهي
مشركة - في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم، قلت: إن أُمِّي قدمت وهي راغبة، أفَأَصِلُ أُمِّي؟ قال: ((نعم، صِلِي
أُمِّكَ)) [٣٧].

الإهداء إليهم ترغيبًا لهم في الإسلام أو في حال دعوتهم، وكذلك يجوز قبول
هديتهم، فقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم شاةً من يهودية، وأكل منها، وكانت
مسمومة، ولكن ورد النهي عن قبول هدية الكافر إذا كان يريد أن يصل بذلك إلى
الموالة؛ عن عياض بن حمار: أنه أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم هدية له أو ناقة،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أسلمت؟)) قال: لا، قال: ((فإني نهيت عن
زبد المشركين)) [٣٨].

٤) عيادة المريض الكافر:

لدعوتهم إلى الإسلام أو لأي مصلحة شرعية؛ فقد عاد النبي صلى الله عليه
وسلم غلامًا يهوديًا، ودعاه إلى الإسلام فأسلم، وعاد عمه أبا طالب حين حضرته
الوفاة ودعاه إلى الإسلام.

(٥) الانتفاع بما عندهم من أنواع العلوم الدنيوية والخبرات العلمية: (صناعة - طب - هندسة...)؛ فقد استأجر النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً كافراً يدلّه على الطريق أثناء الهجرة إلى المدينة، وجعل فداءً بعض أسرى بدر - ممن لم يكن عنده فداءً من الهال - أن يعلم عشرة من أولاد الأنصار القراءة والكتابة.

(٦) يجوز للمسلم أن يذهب إلى الطبيب الكافر ليعالجه إذا وثق به في حالة عدم وجود طبيب مسلم.

(٧) يجوز للمسلم أن يتزوج بالكتابية العفيفة، مع بغضها على دينها إذا أمن من ضررها على الدين والنفس والأولاد.

الرابطّة التي تجمع أهل الإسلام في كل زمان ومكان، ليست رابطّة الدم والنسب، وليست رابطّة الأرض والوطن، وليست رابطّة القوم والعشيرة، وليست رابطّة اللون أو الحرفة أو الصنعة وإنما رابطّة الدين والعقيدة والإيمان، فهي الرابطّة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، والصلة التي تجعل ذلك المجتمع متماسكاً مترابطاً، وتحفظه من التحلل والذوبان في غيره من المجتمعات، ومن هنا جاءت أهمية عقيدة الولاء والبراء؛ من كونها فريضة ربانية وسياجاً لحماية هويّة الأمة الإسلامية؛ قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ [التوبة: ٧١].

فائدة ٥:

مظاهر موالاة الكافرين:

أولاً: الرضا بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح
أي مذهب من مذاهبهم الكافرة.

ثانياً: التشبه بعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم؛ لأنه ما تشبه بهم إلا لأنه معجب
والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من تشبه بقوم فهو منهم"

ثالثاً: الاستعانة بهم، والثقة بهم، واتخاذهم أعواناً وأنصاراً.

رابعاً: معاونتهم ومناصرتهم.

خامساً: مشاركتهم في أعيادهم بإعانتهم إما بالحضور أو بالتهنئة.

سادساً: التسمي بأسمائهم.

سابعاً: السفر إلى بلادهم لغير ضرورة بل للنزهة ومتعة النفس.

ثامناً: الاستغفار لهم والترحم عليهم إذا مات منهم ميت.

تاسعاً: مجاملتهم ومداهنتهم في الدين.

عاشراً: استعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها.

اعلم أرشدك الله لطاعته أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعنى (يعبدون): يوحّدون.

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو: إفراد الله بالعبادة.

وأعظم ما نهى الله عنه الشرك، وهو: دعوة غيره معه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

هذه المقدمة الثالثة وهي بيان لدين الإسلام الحق، وهي الحنيفية السمحة.

قوله: ((اعلم أرشدك الله)): الرشاد ضد الغواية، ومعنى أرشدك،

أي: ذلك وهداك إلى الرشد، والرشد: هو الاستقامة على طريق الحق.

قوله: ((لطاعته)): طاعة الله: هي لزوم ما يُرضيه سبحانه تعالى، ومن

ذلك فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات تقرباً إلى الله سبحانه.

قوله: ((أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ)): الحنيفية تأتي على معنيين:

الأول: نسبة إلى الحنيف، والحنيف مأخوذ من الحَنَف، وأصله في لسان العرب الميل، فيكون المقصود بالحنيفية هي الميلُ عن الشرك إلى الحق.

الثاني: الحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص، فيكون معنى

الحنيفية هي الطريقة القويمة المستقيمة التي لا اعوجاج فيها.

فيكون معنى الحنيفية: الميل عن الشرك إلى التوحيد والاستقامة على

دين الله.

قوله: ((ملة إبراهيم)): الملة: هي الطريقة والشرعة والنحلة، وهي

اسم لكل ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على السنة أنبيائه.

إنما عُرِيت الملة إلى إبراهيم عليه السلام دون غيره من الأنبياء لأن

إبراهيم أبو الأنبياء.

قوله: "أن تعبد الله مخلصاً له الدين": هذا بيان لحقيقة ملة إبراهيم،

وهي مجموع الأمرين:

الأول عبادة الله، الثاني: إخلاص هذه العبادة لله سبحانه.

قوله: "أن تعبد الله": "العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه

من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة".

العبادة من العبد لها ركنان:

الأول: كمال الخضوع والذل: والمراد أن يخضع العبد لله ويذل له وينقاد، فكلما سمع أمراً أو نهياً انقاد سماعاً وطاعةً، هذا المراد بكمال الخضوع.

الثاني: كمال المحبة: ودلّ على اعتباره هو أصل التأله وهو التعبد، لأن الإله بمعنى المألوه أي المحبوب.

ولهذا يقول ابن القيم في نونيته في تعريف العبادة:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلک العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر لا بالهوى والنفس
وشرط صحة المحبة ودعوى المحبة لله جل وعلا المتابعة.

قوله: "مخلصاً له الدين". الإخلاص: هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله وأن ينال رضى الله وثوابه.

قوله: (وَيَذَلِّكَ): أي بعبادة الله بالإخلاص.

قوله: (أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ): أي أن هذه الملة وهذا التوحيد الخالص هو الذي خُلِقَ الخلق من أجله، وهو الذي أُمِرَ به جميع الناس أمر إيجاب، وكان آكد الفرائض وأول الواجبات.

قوله: "وَخَلَقَهُمْ هَآ": أي: خلقهم لعبادته.

قوله: **كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**:

فيها دلالة على حَصْر مَقْصَد الخلق في علة واحدة، وهي أن الله لم يخلق الخلق إلا لعبادته.

وبداً في الاستدلال بالغاية لأمرين:

الأول: لأن الله جل وعلا أخبر الخلق بأنه إنما خلقهم ليعبدوه.

الثاني: ليدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، وإلا لما حققوا ما من أجله خلقوا.

قوله: إلا ليعبدون:

أي ما خلقتهم إلا لآمرهم بالعبادة والتوحيد وأَبْتَلِيهِمْ أَيِ اخْتَبَرُهُمْ بِالتَّكَايُفِ، ثُمَّ أَجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ. على الراجح.

قوله: "ومعنى يعبدون يوحدون":

هذا تفسير للعبادة ببعض أفرادها، وهو أصل العبادة الذي لا تصح إلا به، كما قال سبحانه وتعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠].

فالعبادة مبنية على التوحيد، فكل عبادة لا توحيد فيها فليست بعبادة.

قال العلامة العثيمين: (يعنى التوحيد من معنى العبادة، وإلا فقد سبق

لك معنى العبادة، وعلى أي شيء تُطلق أنها أعمّ من مجرد التوحيد). اهـ

ولهذا قال بعدها:

قوله: "وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ":

التوحيد لغة مصدر وَّحَد يُوْحِد، أي جعل الشيء واحداً، وهذا لا

يتحقق إلا بنفي وإثبات.

والتوحيد بالمعنى العام يشمل أنواع التوحيد الثلاثة:

الأول: توحيد الألوهية، وهو إخلاص العبادة لله وحده بجميع أفراد

العبادة.

الثاني: توحيد الربوبية، وهو: العلم أن الله رب كل شيء وخالقه.

الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو: أن يوصف الله بها وصف به

نفسه ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأراد المصنف من أنواع التوحيد الثلاثة الأول؛ وهو توحيد الألوهية،

والألوهية بمعنى العبودية، ولهذا يُسمى توحيد العبادة.

وإنما خصه المصنف رحمه الله لأمر ومنها:

الأول: أَنَّ شَرَكَ الْكَافِرِينَ كَانَ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَأَمَّا الرَّبُّوبِيَّةُ فَكَانُوا يَقْرُونُ بِهِ فِي الْجُمْلَةِ.

الثاني: أَنَّهُ هُوَ الَّذِي بَعَثَ لِأَجَلِهِ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَتْ لَهُ الْكُتُبَ وَشَرَعَ مِنْ أَجَلِهِ الْجِهَادَ.

قَالَ اللَّهُ: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"

قوله: "وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ": المقصود بالعبادة الشرعية، وهي الخضوع لأمر الله الشرعي، هو القيام بالتكاليف وبما أمر الله به، فيفرد الله بالأقوال والأفعال والمقاصد.

وتوحيد الألوهية يستلزم من العبد أمرين:

الأول: أَنْ يُخْلِصَ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ فَتَكُونَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الثاني: أَنْ يَعْرِفَ الْعِبَادَةَ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ كَيْفَ يُخْلِصُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ. وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ مُتَابَعَتِهِ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: "وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشَّرْكُ":

والأدلة على ذلك كثيرة من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومراد المصنف هنا بالشرك المراد به الشرك الأكبر، وقد عرفه بقوله:

قوله: "وهو دعوة غيره معه":

وهذا التعريف يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

والشرك الأكبر أربعة أنواع:

الشرك الأكبر. وهو أربعة أنواع:

١- شرك الدعاء: وهو أن يضرع إلى غير الله - تعالى - من نبي أو ملك أو ولي بقربة من القرب - صلاة أو استغاثة أو استعانة - أو يدعو ميتاً أو غائباً أو نحو ذلك مما هو من اختصاص الله تعالى. والدليل قوله تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) } (٣).

٢- شرك النية والإرادة والقصد: بأن يأتي بأصل العبادة رياءً أو لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها. والدليل قوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) } أُولَئِكَ الَّذِينَ

لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(١٦) { (١) }.

قال ابن القيم رحمه الله: (أما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقَلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئاً غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته...)

٣- شرك الطاعة: وهو أن يتخذ له مُشرعاً سوى الله تعالى، أو يتخذ شريكاً لله في التشريع، فيرضى بحكمه ويدين به في التحليل والتحريم عبادة وتقرباً وقضاءً وفضلاً في الخصومات. والدليل قوله تعالى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا.. الآية. }

٤- شرك المحبة: وهو اتخاذ الأنداد من الخلق يحبهم كحب الله تعالى؛ فيقدم طاعتهم على طاعته ويلهج بذكرهم ودعائهم. والدليل قوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } (٣).
قوله: والدليل قوله تعالى: { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا }.

هذه الآية جمعت بين الأمرين: الأمر بالعبادة والنهي عن الشرك، مما يدل على أن العبادة لا تتم إلا باجتناّب الشرك قليلة وكثيرة؛ لأن (شيئاً) نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، أي: لا شركاً أصغر ولا أكبر.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟
فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبه محمداً -.

هذا مضمون الرسالة والمراد منها، فهذه الأصول التي يجب معرفتها على كل إنسان؛ **قوله ((الإنسان))**: الألف واللام تفيد العموم فيدخل المسلم والكافر والمنافق.

ومن عرف هذه الأصول الثلاثة وعمل بمقتضاها فهو أهل لأن يوفقه الله تعالى في جوابه كما قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} ١، وقد ذكر الأصول الثلاثة ثم بدأ في تفصيلها وهذه أيضاً من الطرق العلمية الجيدة؛ لأن النفوس إذا عرفت الشيء إجمالاً تطلعت إلى معرفة تفصيلاً، والتفصيل بعد الإجمال من مقاصد البلغاء كما في علم المعاني.

وأتى المصنف بالأصول الثلاثة على صيغة سؤال وجواب وذلك لأمرين:

الأول: فلأن صيغ السؤال والجواب في التعليم من أنفع الصيغ وأرسخها تعليمياً وتدريساً للمُعَلِّمين والمدرِّسين، ومن ثم تجد المصنف - يرحمه الله - يُعنى بهذا الأسلوب في كثير من رسائله.

الثاني: فلأن هذا الأسلوب فيه تنبيه للغافل عن عظيم ما يلقي، حتى يتفهّمه ويعيه طالب العلم.

قوله: (معرفة العبد ربه) يعني معرفة العبد معبوده؛ لأن الربوبية في هذا

المقام يُراد بها العبودية، لما؟ لأن الابتلاء للأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الربوبية.

قوله: "فإن قيل لك من ربك؟" هذا هو الأصل الأول. والجواب
"فقل: ربي الله الذي رباني"

وأصل الرب في اللغة بمعنى: المربي، ومعنى رباني، أي: خلقتني
وأوجدني ثم رباني بنعمه الظاهرة والباطنة.

وقوله: "وربي جميع العالمين" هذا تعميم، أي: رباني أنا وربى جميع
العالمين، وقوله: "بنعمته"، أي: ابتداء من الغداء الذي يصل إلي

وقوله: "وهو معبودي، ليس لي معبود سواه"

يعني: إذا كان هو الذي رباني لا غيره وربى جميع العالمين لا غيره فعلى
هذا أن يكون هو المستحق للعبادة ولهذا قال: "وهو معبودي، ليس لي
معبود سواه؟"

فالذي يستحق أن يكون معبوداً هو القادر على الخلق، ومن لا يقدر على
الخلق لا يستحق أن يكون معبوداً، ولهذا ذكر الله تعالى أوصاف الآلهة
التي لا تصلح للعبادة في سورة الفرقان في قوله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا
يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً}.

وقال تعالى: {أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ}.

فالمعبود هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت؛ وهو الله سبحانه
وتعالى.

قال المصنف: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

قُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّنِي، وَرَبِّيَ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي
مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ
سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

قوله: والدليل قوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ":

استدل الشيخ بهذه الآية (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

قوله سبحانه (الْحَمْدُ): أي كُلِّ حَمْدٍ، لأن الألف واللام هنا للاستغراق؛

استغراق أنواع الحمد.

والحمد: هو الإخبار عن صفات المحمود على وجه المحبة و التعظيم.

فمعنى الحمد لا بد فيه من اجتماع شيئين: -

أما الشيء الأول: فهو الإخبار عن صفات المحمود أي التي يُثنى عليه بها

وتكون محمودة.

وأما الشيء الثاني: فهو أن يكون على وجه محبة، أما من أخبر بالمحامد دون محبة

فهذا لا يكون حامداً لأنه قد يدخل في المادح والمادح قد يخبر ببعض صفات الشئ

ولكن لا يجب من أثنى عليه. وكذلك يقال: من أحب دون إخبار فلا يدخل في

الحمد، فالحمد معنى له حقيقة مجتمعة من ذينك القيدتين السابقين

قوله: "لله" اللام لام الاستحقاق.

اللام تارة تكون:

- للملك؛ إذا كان ما قبلها من الأعيان، مثل: الدار لزيد
- وتكون للاستحقاق، وهي إذا كان ما قبلها معنى، وكان ما بعدها أهلاً لذلك، مثل الحمد لله، الفخر لفلان.
- فإن لم يكن ما بعدها أهلاً لذلك كانت للاختصاص. الباب للدار.

وفي قوله الحمد لله أمران:

الأول: إخبار أن المستحق للحمد هو الله عز وجل.

الثاني: تعليم للخلق تقديره قولوا الحمد لله.

قوله: (العالمين): جمع عالم، والعالم اسم لأجناس ما يُعلم، وهو كل ما سوى

الله جل وعلا.

قال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين كقوله تعالى: ؟ قال

فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين.

وسمي العالم عالماً؛ لأنه علامة على خالقه وموجده ومالكه.

قوله: (وكل من سوى الله عالم) عالم الإنسان، عالم الطير، عالم النبات، عالم

الملائكة، عالم الجن، عالم السموات، عالم الأراضين، عالم الماء.

فالوجود قسمان: رب، ومربوب

فالرب: هو المالك سبحانه المتفرد بالربوبية، والإلهية.

والمربوب: هو العالم، وهو كل من سوى الله من جميع الخلائق.

قوله: (وأنا واحد من ذلك العالم): إقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى فإذا أقر

بربوبية الله وجب عليه أن يوحد الله في العبادة فلا يعبد مع الله أو من دونه أحداً.

فما دام أنك واحد من ذلك العالم فأول من يخاطب بهذه الآية المؤمن، (الْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فيستيقن المؤمن بتلاوته لهذه الآية ربوبية الله جل وعلا له

واستحقاقه للحمد واستحقاقه جل وعلا لكل ثناء ولكل وصف بالكمالات.

فأنا أيها الإنسان واحد من جملة تلك المخلوقات المربوبة المتعبدة، بأن يكون

الله وحده هو معبودها وحده.

قال المصنف: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بآياته ومخلوقاته.
وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا
لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت:
٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف: ٥٤].

قوله: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

أي: بم استدلت على معرفتك ربك؟

قوله: فَقُلْ: بآياته ومخلوقاته.

الآية في اللغة لها معان كثيرة، منها: البرهان والدليل. وآيات الله نوعان:

١- آيات شرعية: ويراد بها: الوحي الذي جاءت به الرسل فهو آية من آيات

الله، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} ١، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ كَانَ

الوحي دليلاً وبرهاناً على الله تعالى؟ فالجواب:

أولاً: أن هذا الوحي الذي جاءت به الرسل جاء وحيّاً متكاملاً منتظماً لا تناقض فيه ولا اضطراب، قال تعالى عن القرآن: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} ٢، فالقرآن الكريم دليل على وجود الرب العظيم، وهو دليل من الآيات الشرعية.

ثانياً: أن هذه الآيات الشرعية قامت بمصالح العباد، وهي كفيلة بسعادتهم في دينهم ودنياهم. وأوضح مثال شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله جل وعلا قد شرع لنا في هذا القرآن الكريم وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ما هو كفيل بمصالحنا. وما من مشكلة أو معضلة إلا في الشريعة حل لها سواء كان عن طريق الكلّيات أو عن طريق الجنائيات.

٢- آيات كونية: والآيات الكونية هي المخلوقات، مثل: السماوات والأرض والإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك.

وأطلق المؤلف الآيات وأراد الآيات الكونية ولهذا قال:

"وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا"

وخص الآيات الكونية بالذكر؛ لأن دلالتها يشترك فيها العالم والجاهل.

والمخلوقات من الآيات الكونية، والعطف في كلام المصنف من باب عطف

الخاص على العام، وذلك يفيد أمرين:

الأول: لفت الذهن إلى أهمية الخاص المذكور.

الثاني: التأكيد عليه.

• **فإن قيل: لم فرق الشيخ بين المذكورات مع أنها كلها مخلوقات؟**

وقد قال ابن جرير الطبري في تفسيره: ((والسماوات والأرض وكل موجود من خلقه فمن آياته))^(١) اهـ
الجواب: أن الآيات جمع آية، والآية هي البينة الواضحة الدالة على المراد، فكون الليل والنهار والشمس والقمر آية أظهر منه من السموات والأرض، وذلك لأن الإلف للسماء وللأرض يحجب عنه كون هذه آيات، لكن الأشياء المتغيرة التي تذهب وتجيء، هذه أظهر في كونها آية.

فالسماوات والأرض آيات، لكنها عند الناظر ليست مما يدل دلالة ظاهرة واضحة على المراد عند مثل المسؤول هذا السؤال، مع كونها عند ذوي الفهم وذوي الأبواب العالية أنها آيات، كما وصفها الله جل وعلا في كتابه، الشمس والقمر والليل والنهار متغيرات تقبل وتذهب، التغير يثير السؤال، لما ذهب؟ ولما جاء؟ لما أتى الليل؟ ولما أتى النهار؟ لما زاد الليل؟ ولما نقص النهار؟ وهكذا فهي في الدلالة أكثر من دلالة المخلوقات مع أن في الجميع دليلاً

• **وجه كون الإنسان يستدل على معرفة الله بمخلوقاته يرجع إلى معنيين**

كليين:

(١) تفسير الطبري (٦٠/٩).

الأول: أن هذه المخلوقات لها خالق أوجدها إذ لا يصح أن يوجد المخلوق نفسه ولا أن يوجد العدم فلزم أن يكون هناك خالق هو الله سبحانه وتعالى أوجدها.

الثاني: أن من نظر إلى المخلوقات قاده ذلك إلى أن هناك خالقاً لها مدبراً لشأنها محكماً لصنعتها.

قوله: وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ:

أي: ومن الأدلة والبراهين على وجود الباري تعالى وتفردّه بالربوبية والإلهية وجود الليل والنهار. وذلك من وجوه:

أولاً: تعاقبهما، فهذا يذهب، وهذا يأتي بعده.

ثانياً: دخول هذا في هذا فينسلخ الليل شيئاً فشيئاً ويدخل النهار والعكس.

ثالثاً: اختلافهما بالطول والقصر، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونباتات.

رابعاً: أن جعل ربنا الليل سكناً والنهار معاشاً.

قوله: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ:

أي: ومن آيات الله الدالة على وجوده سبحانه تفردّه بالربوبية والإلهية: الشمس والقمر، وذلك من وجوه:

أولاً: جريانها باستمرار منذ أن خلق تعالى الشمس والقمر إلى أن يأذن الله تعالى بخراب هذا الكون.

قال تعالى: {وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}.
مُسْتَقَرٍّ لَهَا.

ثانياً: الانتظام البديع، فالشمس تسير في فلكها في مدة سنة، وهي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه.

والقمر بيديه الله كالخيط ثم يتزايد نوره ويتكامل حتى ينتهي إلى إبداره، وكماله ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى، قال تعالى: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

ثالثاً: ما فيهما من المنافع العظيمة، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}.

وفي الشمس منافع عظيمة للعلويات: فإن القمر يستمد نوره من الشمس، وللسفليات: من الإنسان والحيوان والنبات والبحار وغير ذلك، ولولا طلوع الشمس وغروبها لما عرف الليل والنهار ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء. وفي سير القمر تظهر مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم. فتميزت به الأشهر والسنون وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات التي لا يحصيها إلا الله تعالى.

فكل ذلك من أعظم الأدلة على وحدانية الرب جل وعلا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت: ٣٧].

{لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ}. أي أن هذه وإن كانت آيات عظيمة فهذا لا يقتضي أن يسجد لها لأنها مخلوقة؛ بل المستحق للسجود والعبادة هو الذي خلقها.

وخص السجود بالذكر لأنه يدل على الغاية في التعظيم، فخص بالذكر دون

سواه.

قوله: وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

أي: ومن أعظم مخلوقات الله تعالى الدالة على عظمته ووحدانيته:

قوله: السموات السبع، أي في علوها وسعتها واستدارتها، وعظم حلقها

وبنائها.

قوله: "والأرضون السبع"، أي: كيف جعل الأرض فراشاً ومهاداً وذلها

لعباده، وجعل فيها سبلاً، وجعل فيها أرزاقهم ومعاشهم، وغير ذلك.

قوله: (وَمَنْ فِيهِنَّ) من المخلوقات العظيمة الجبال والبحار في الأرض،

والملائكة في السماء

قوله: (وَمَا بَيْنَهُمَا) أي بين ذلك بين السماء والأرض، كذلك مما لا يعلمه إلا الله

عز وجل.

كل ذلك من مخلوقات الرب سبحانه وهو دال على عظمته، وأنه الخالق لها.

قوله: والدليل قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [الأعراف: ٥٤].

قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} " هذا فيه إخبار من الله تعالى بأنه خلق هذا العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام. أولها: الأحد، وآخرها الجمعة.

منها أربعة أيام للأرض ويومان للسماء، كما قال تعالى: {قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}

ومعنى قوله سبحانه: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}، أي في تنمة أربعة أيام لا أنها أربعة أيام مستقلة عن اليومين الأولين وإلا لكانت الأيام ثمانية. ولو شاء تعالى لخلقها في لحظة، ولكنه ربط المسببات بأسبابها كما تقتضيه حكمته سبحانه وتعالى.

خلق الأرض كان قبل السماء، قال تعالى: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات...

قال ابن كثير: (فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا مما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض).

وأما قوله تعالى: ؟ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها... ؟ والتي تدل بظاهرها على أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض فقد أجاب ابن عباس كما في صحيح البخاري، فقد سئل عن هذا بعينه فأجاب:

(بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء).

وقوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}، أي: يغطي كل واحد منهما الآخر فيذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلباً {حَثِيثًا}، أي: سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب جاء هذا. وإذا جاء هذا ذهب هذا.

وقوله تعالى: {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} هذا معطوف على {السَّمَاوَاتِ}، يعني: خلق السموات والأرض وخلق الشمس والقمر حالة كونها مسخرات، ومعنى {مُسَخَّرَاتٍ}، أي: مذلات جارية في مجاريها بتسخير الله تعالى.

وقوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، يعني: أن الله جل وعلا متفرد بالخلق ومتفرد بالأمر، فله الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات، وله الأمر، المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية ثم أحكام الجزاء في الدار الآخرة، قال الله تعالى: {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، أي: عظم وتعالى. وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة

أوصافه وكمالها وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير فكل بركة في
الكون فمن آثار رحمته سبحانه وتعالى.

والرب هو المعبود.

والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

قوله والرب هو المعبود: ومعنى المعبود: المألوه المستحق أن يعبد وحده دون كل من سواه.

قال العلامة النجدي: وكان ينبغي أن يقول الشيخ رحمه الله (والرب هو المعبود بحق) لأن المعبودات بغير حق كثيرة. اهـ

والظاهر أن الشيخ لا يريد أن من معاني الرب المعبود، وإنما أراد أن يبين أن المستحق للعبادة هو الرب المتصرف في هذا الكون خلقا وملكا وتدبيراً، فقصد بذلك الاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية والعبودية. ويدل على ذلك استدلاله بالآية، وذكر كلام ابن كثير بعده.

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١-٢٢﴾.

هذه الآية فيها دالتان على ما قصده المؤلف:

الأولى: قوله سبحانه (اعبدوا) واعبدوا هنا يقصد به إخلاص العبادة لله.
الثانية: قوله سبحانه (فلا تجعلوا لله أندادا) أندادا فسرها ابن عباس رضي الله عنهما بأنه الشرك، كما أخرجه عنه الطبري في تفسيره، فيكون تقدير الآية: (فلا تجعلوا لله شركاء أو شركاً في عبادتكم).

• قد يقول قائل لماذا كان الله هو المستحق للعبادة وحده دون من سواه؟

الجواب: لأنه سبحانه وتعالى الخالق المدبر لشئون العباد، ولهذا قال بعد أمره بالعبادة سبحانه: (اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً)... الآية. وقال عقبها: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: أشباهاً ونظراء تصرفون لهم العبادة أو شيئاً منها { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، أي: تعلمون أن هذه الأنداد ليست مماثلة لله تعالى، وتعلمون أيضاً أن الله سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة.

ولهذا قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبّيده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً، أي: مهذا كالفراش

_____ الجهد المبذول في شرح ثلاثة الأصول _____

مُقَرَّرَة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، { وَالسَّمَاءُ بِنَاءٌ } وهو السقف... وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب هاهنا- في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقاً لهم ولأنعامهم.

قوله: قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

ذكر الشيخ رحمه الله عبارة ابن كثير بمعناها.

ولفظ ابن كثير: "ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرَك به غيره؛ ولهذا قال: { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }". اهـ

والمعنى واحد. وهو أن الآيات المذكورة دلت على أن الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها من العدم على غير مثال سابق هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره؛ لأن كل من سواه تعالى وتقدس مخلوق، مربوب، متصرف فيه.

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل:

الإسلام، والإيمان، والإحسان ومنه الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل،
والرغبة، والرغبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة،
والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها - كلها لله
تعالى.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

لما تقرر أن الرب هو المعبود، كان من المناسب أن تذكر أنواع العبادة التي يعبد
الله جل وعلا بها، والتي يجب إفراد الله جل وعلا بها.

قوله: وأنواع العبادة: أي: وأصناف العبادة التي شرع الله لعباده القيام بها،
وتعبدهم بها. والنوع: كل ضرب أو صنف من كل شيء.

قوله: " التي أمر الله بها ": هذا أحد تعاريف العبادة عند بعض العلماء وهو ((ما
أُمر به من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي))، يعني: لم يُعلم أنه عبادة إلا عن
طريق الوحي.

وهذا هو تعريف الأصوليين في كتبهم، ومعنى ذلك أن الشيء الذي أُمر به من
غير أن يقتضي العقل المجرد الأمر به، ومن غير أن يَطْرَدَ به عرف، هذا يسمى
عبادة.

قال الشيخ ابن قاسم رحمه الله: (وأحسن وأجمع ما عرفت به هو ما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال الظاهرة والباطنة).

وهو من أشمل ما عرفت به، فكل فرد من أفراد العبادة داخل تحت هذه العبارة، فالعبادة شملت جميع أنواع الطاعات). أ. هـ

وهذا التعريف مناسب من وجهين:

الأول: لأنه أيسر في الفهم.

الثاني: أنه قريب المأخذ من النصوص.

فقوله: إن العبادة اسم جامع؛ يجمع أشياء كثيرة، جامع لأي شيء؟ لكل ما يحبه الله ويرضاه، كيف نصل إلى أن هذا العمل أو القول يحبه الله ويرضاه؟ لابد أن يكون مأمورا به، أو مخبرا عنه بأن الله جل وعلا يحبه ويرضاه. أنواعها، قال: من الأقوال والأعمال؛ فهناك قول وعمل. فإذن العبادات تنقسم إلى:

... عبادات قولية.

... وعبادات عملية.

ليس ثمَّ قسم ثالث، إما أن تكون قولية، وإما أن تكون عملية. قال: الظاهرة والباطنة؛ قد يكون القول ظاهرا، وقد يكون باطنا، وقد يكون العمل ظاهرا، وقد يكون باطنا.

فتحصل أن أنواع العبادات هي الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها:

والقول: قد يكون باللسان، وقد يكون بالجنان.

قول اللسان أعمال كثيرة مما أمر الله جل وعلا به مثل الذكر والتلاوة، كلمة المعروف ونحو ذلك، هذه كلها من أنواع العبادات اللسانية.

قول القلب هو نيته وقصده، إذا قصد القلب وتوجه إلى شيء كان قائلاً به، ليس متكلماً، لأن الكلام من صفات اللسان؛ كلام ظاهر، أما القول قد يكون ظاهراً وقد يكون باطناً.

العمل: عمل القلب وعمل الجوارح.

وهذه الأنواع التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى ممثلاً بعضها من الأقوال والأعمال، بعضها ظاهر، وبعضها باطن، بعضها لساني، وبعضها قلبي، وبعضها عملي قلبي، وبعضها من عمل الجوارح.

قوله: " التي أمر الله بها ": يدخل فيها التي أمر الله بها أمر إيجاب أو أمر ندب واستحباب، ومما يدل على أن المندوب مأمور به قوله تعالى: { وافعلوا الخير }.

قوله (مثل الإسلام والإيمان والإحسان)

وهذه الثلاثة الإسلام، والإيمان، والإحسان هي الدين كما جاء ذلك فيما رواه مسلم من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ.

• **قد يقول قائل لماذا ذكر المؤلف مراتب الدين ضمن العبادات؟ مع أن**

العبادات كلها ترجع إليها؟

الجواب: قد يقال إن المؤلف قصد أحد أمرين:

الأول: إما أن يقال إن المؤلف رحمه الله بدأ بذكر العبادات بذكر أصولها، فأصول العبادات الإسلام والإيمان والإحسان، فكل العبادات ترجع إلى هذه الأنواع الثلاثة، فالإسلام ترجع إليه عبادات الجوارح والظاهر، والإيمان ترجع إليه عبادات القلب، والإحسان هو منتهى العبادة القلبية، ثم شرع في ذكر بعض أنواعها.

كما جاء ذلك في حديث جبرائيل الطويل في الصحيحين من حديث ابن عمر وعمر وأبي هريرة وغيرهم، فجميع محاب الله ومراضيه المسماة بالعبادة، هذه ترجع إلى مراتب الدين الثلاثة، إما إلى الإسلام، وإما إلى الإيمان، وإما إلى الإحسان.

الثاني: هو أن هذه الأنواع من الإسلام والإيمان والإحسان، ألفاظ تدل على عبادات فكانت من جملة العبادات.

والأول ترجحه الأدلة من النصوص الشرعية؛ من أن هذه الثلاث يرجع إليها الدين كله.

والأول هو مراد المؤلف - والله أعلم - ويؤيد ذلك أنه لما ذكر أصول العبادات التي تجمع العبادات القلبية والفعلية والقولية. فصل وقال: (وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ). فلا إشكال حينئذٍ. والله أعلم

قوله: ومنه الدعاء والخوف وو...: أي: ومما أمر الله به الدعاء والخوف... إلخ.

الضمير في قوله (ومنه) يرجع إلى أمر العبادة فيكون المعنى: ومن أمر العبادة أو

من نوع العبادة.

فائدة:

أيها أعم " العبادة أعم من الدعاء أم الدعاء أعم من العبادة "؟

الجواب: إن كانت العبادة بمنعى الذل والخضوع والدعاء بمعنى السؤال والطلب، فتكون العبادة أعم من الدعاء.

وإن كان الدعاء بمعنى الذل والخضوع أي بمعنى التعبد؛ والعبادة بمعنى الصلاة والزكاة أي بمعنى المتعبد به فيكون الدعاء أعم من العبادة.

وهنا المصنف جعل العبادة بمعنى الذل والخضوع وجعل الدعاء بمعنى السؤال والطلب، ولذا جعل العبادة أعم من الدعاء.

وقوله: "وغير ذلك من أنواع العبادة": إشارة إلى أن أنواع العبادة غير محصورة بهذه الأنواع بل هي كثيرة جداً؛ لأن كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة. فالعبادة تشمل الدين كله.

قوله: التي أمر الله بها - كلها لله تعالى: أي: جميع أنواع العبادة مما ذكر وغيره لله وحده، لا يصلح منه شيء لغير الله عز وجل، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما.

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:

:١٨]

هذا دليل لجملة ما تقدم من العبادات.

في المساجد تفسيران:

أحدهما: أنها المواضع التي بنيت لعبادة الله، فالمعنى: أنها إنما بنيت لعبادة الله وحده فلا تعبدوا فيها غيره، والثانية: أنها الأعضاء التي خلقها ليسجد له عليها، وهي الوجه واليدان والركبتان والقدمان، فلا يسجد بها لغيره.

وقوله: (فلا تدعوا): أي لا تعبدوا مع الله أحدا، فيشمل نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ هذه الآية فعامّة في دعاء العبادة ودعاء المسألة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله جل وعلا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

ففسر الدعاء في الآية الأولى بالعبادة في الآية الثانية.

فالدعاء يُطلق في النصوص ويراد به دعاء العبادة ودعاء المسألة، وقد يُراد به أحدهما دون الآخر لقرائن.

فائدة:

كل عمل يعبد الإنسان به ربه يسمى دعاءً لأمرين:

الأول: لأن هذه الأعمال صُلِبها وعمودها الطلب والدعاء، الذي هو معروف.

الثاني: أن هذه الأعمال فيها معنى الطلب؛ لأن الأعمال التعبديّة التي يفعلها

المرء يقصد من ورائها طلب رضى الله ليدخل جنته، وينجى من ناره، فكان فيها

معنى الطلب، فسمي بدعاء العبادة، فدعاء العبادة يشمل جميع العبادات صغيرها وكبيرها.

قوله: {أَحَدًا} نكرة في سياق النهي فتفيد العموم كائناً من كان؛ فشملت الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم، فلا يدعى مع الله أحد من الملائكة ولا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، فقد شملت جميع الخلق.

قوله: {فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر}، أي: فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة التي ذكر المصنف رحمه الله مثل أن دعا غير الله تعالى من الأموات والغائبين أو رجاهم أو خافهم أو سألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات أو غير ذلك فهو مشرك الشرك الأكبر؛ لأنه أشرك مع الله غيره. وكافر؛ لأنه جحد حقاً لله تعالى فصرفه لغيره.

فالشرك والكفر قد يجتمعان فيمن لا إيمان له، فيقال: إنه مشرك كافر. وقد ينفرد الشرك بقصد الأوثان من قبور وغيرها. وإن كان يعترف بالله تعالى فلا يطلق عليه كافر؛ لأن الكفر معناه الجحد والإنكار، لكنه مشرك كافر إذا صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله منكرًا أن الله سبحانه وتعالى مستحقُّ هذه الأنواع ولهذا قال الشيخ رحمه الله (فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر).

قوله: والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} أي: والدليل على أن من دعا مع الله غيره فهو مشرك كافر هذه الآية فإن الله تعالى سباهم كافرين لدعائهم مع الله غيره.

فقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} (إلهاً) نكرة في سياق الشرط، فتعم كل

مدعو، وتعم أيضاً كل دعاء، فالعموم في المدعو وفي الفعل أيضاً، وهو الدعاء. (١)

قوله: {لَا بُرْهَانَ لَهُ}: صفة كاشفة مبينة للأمر وليست صفة مقيدة تخرج ما فيه

برهان لأنه لا يمكن أن يكون برهان على أن مع الله إلهاً آخر.

وفائدة الوصف الكاشف زيادة البيان والتوضيح على هؤلاء الذين صرفوا

العبادة لغير الله، بأنهم صرفوها بلا بينة ولا برهان.

(١) قال شيخ الإسلام: أما قوله تعالى إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له الآية وقوله إن

يدعون من دونه إلا إناثاً الآية وقوله وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل الآية وكل موضع ذكر فيه دعاء
المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر لوجه ثلاثة أحدهما
أنهم قالوا ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم.

الثاني إن الله تعالى فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل
ينصرونكم أو ينتصرون وقوله تعالى إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون وقوله تعالى لا
أعبد ما تعبدون فدعائهم لآلهتهم هو عبادتهم

الثالث أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض

حوادثهم ويطلبون منها وكان دعائهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة . مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/١٥)

وفي الحديث: ((الدعاء مخ العبادة)).
والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

بدأ رحمه الله بذكر أدلة العبادات التي ذكرها سابقا.

فبدأ بذكر الدعاء.

وإنما بدأ به لأنه أهم أنواع العبادة لما ورد في حديث النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: "الدعاء هو العبادة".

فدلَّ على أن الدعاء أهم أنواع العبادات من وجهين:

الأول: أن النبي ﷺ أتى بضمير الفصل "هو" وضمير الفصل يفيد التوكيد.

الثاني: أنه أتى باللام في قوله "العبادة" فكأنه قال: "الدعاء هو العبادة لا غيرها".

قال القاضي عياض: أي هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة،

لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عما سواه.

قوله: وفي الحديث: ((الدعاء مخ العبادة)).

قال الصنعاني في سبل السلام (٦/ ١٠٦): أي خالصها لأن مخ الشيء خالصه.

وإنما كان مخها لأمرين: الأول: أنه امتثال لأمر الله حيث قال: (ادْعُونِي) الثاني: أن الداعي إذا علم أن نجاح الأمور من الله انقطع عما سواه وأفرده بطلب الحاجات وإنزال الفاقات، وهذا هو مراد الله من العبادة. اهـ
وقيل: "إنما صار مخاً لها لأنه تبرؤ من الحول والقوة واعتراف بأن الأشياء كلها له وتسليم إليه ثم يسأله.

قال ابن العربي: وبالمخ تكون القوة للأعضاء فكذا الدعاء مخ العبادة به تتقوى عبادة العابدين فإنه روح العبادة.
والحديث ضعيف عند أهل الحديث ضعفه يحيى بن سعيد القطان وغيره.
ومعناه صحيح.

فالدعاء هو العبادة ومخ العبادة لأنه يتضمن حقيقة العبودية والاعتراف بغنى الرب وافتقار العبد، وقدرته تعالى وعجز العبد، وإحاطته تعالى بكل شيء علماً.
فالدعاء يزيد العبد قرباً من ربه، واعترافاً بحقه.

قوله: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}"

وجه الدلالة من الآية أن الله جل وعلا سمى الدعاء عبادة.
قوله: {أَسْتَجِبْ لَكُمْ} إذا كان دعاء عبادة فإن استجابته هي الإثابة من الله سبحانه وتعالى عليه.

وإذا كان دعاء مسألة فاستجابته الإثابة عليه لأنه تعبد لله بالدعاء.

وأما حصول مقصود الداعي ومطلوبه فقد يحصل وقد لا يحصل، بناءً على حكمة الله عز وجل في تحقيق مطلوب العبد أو ادخار ذلك له في الآخرة أو دفع شرِّ عنه نظير ما دعا أو مثلما دعا.

قوله: {عَنْ عِبَادِي}: فيه دالتان:

الأولى: أن دعاء المسألة من العبادة.

الثانية: أن المراد بالدعاء في أول الآية هو دعاء العبادة.

والناس مع الدعاء على ثلاثة أقسام:

الأول: من لا يدعو الله أصلاً، فيكون مستكبراً عن عبادة الله.

الثاني: من يدعو الله، ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركاً.

الثالث: من يدعو الله مخلصاً له الدعاء، فهذا هو الموحد.

قوله: {سَيَذْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}: أي: حقيرين ذليلين صاغرين جزاء لهم على

استكبارهم.

فائدة:

متى يكون دعاء غير الله شرك؟

الجواب: إنما يكون دعاء غير الله شرك؛ إذا دعا غير الله عز وجل بشيء لا يقدر

عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حياً أو ميتاً. ومن دعا حياً بما يقدر

عليه مثل أن يقول يا فلان أطعمني، يا فلان إسقني فلا شيء فيه، ومن دعا ميتاً أو

غائباً بمثل هذا فإنه مشرك لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا
فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفاً في الكون فيكون بذلك مشركاً.^(١)

^(١) شرح العثيمين على ثلاثة الأصول.

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:

١٧٥].

قوله ودليل الخوف: أي أنه عبادة من العبادات القلبية، بل هو ركن العبادة الأعظم، ولا يستقيم إخلاص الدين لله الذي أمر الله به عباده إلا به.

والخوف هو: انفعال يحصل بتوقع ما فيه ضرر أو هلاك.

قوله: ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل

عمران: ١٧٥].

دَلَّ على أَنَّ الخوف عبادة عظيمة من العبادات، وأول هذه الآية: ﴿إنما ذلكم

الشیطان يخوف أوليائه﴾

قال ابن القيم: "المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة:

"يعظمهم في صدوركم". اهـ^(١)

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أي أنَّه كلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف

إيمانه قوي خوفه منهم

• وينقسم الخوف باعتبار حقيقته إلى أربعة أقسام:

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ١١٠)

الأول: الخوف الطبيعي، هو الخوف من مخلوق قادرٍ على الأذى بسبب حسيٍّ ظاهر.

كالخوف من النار أن تحرقه والخوف من السبع أن يعدو عليه والخوف من العقرب أن تلدغه، أو من ظالمٍ يقدر على أن يؤذيه، فهذا لا يلام عليه العبد؛ ولا ينقص الإيمان لأنه مما جُبل عليه الخلق.

كما قال تعالى عن موسى عليه السلام {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ}.

الثاني: خوف "السر" وهو أن يخاف المرء من غير الله سبحانه وتعالى في إيصال الأذى إليه بدون سبب. (١)

فخوف السر أن يخاف أن يناله الولي أو أن يناله الجني أو نحو ذلك بغير سبب؛ فيعتقد أن عنده قوة وتصرّف حيث يؤذيه بدون سبب.

وقد ذكر الله جل وعلا في كتابه عن أوليائه المرسلين أن المشركين خوفوهم بالهتهم، كما قال سبحانه في قصة إبراهيم: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الأنعام: ٨٠]، وهذا يدل على أنهم خوفوه بشركائهم، ثم قال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١]

(١) قال صاحب تيسر العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١/ ٤١٤): وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيتته سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال. اهـ

كذلك قال جل وعلا في قصة هود عليه السلام عندما قالوا له: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا
اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ} [هود: ٥٤]، يقولون له: إن ما أصابك هو بسبب بعض
آلهتنا، فأصبحت تقول ما تقول، وتنهانا عما تنهانا عنه، فقال جواباً لهم: {قَالَ إِنِّي
أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ
* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤-٥٦]، فتحداهم، وقال: اجتمعوا أنتم ومعبوداتكم،
ثم كيدوني بما تستطيعون، ولا تتأخروا وعجلوا ذلك، فلن تستطيعوا؛ لأن ويلي
الله، وهكذا قالوا النوح عليه السلام بل وسائر الأنبياء، وقالوا لخاتم الرسل صلى
الله عليه وسلم ذلك أيضاً، فقال جل وعلا: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ
بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [الزمر: ٣٦]، يعني: بما يشركون من أصنامهم، وهكذا
المشركون اليوم، إذا نهيت الذين يعبدون الأولياء والأضرحة، قالوا لك: أما تخاف
من الولي؟ فإذا نهيت عن الشرك أو أمرت بالتوحيد وبإخلاص الدعوة لله،
والتوجه إليه، يخوفونك به وقالوا لك: يمكن أن يصيبك الولي بالعذاب؛ لأنك
خالفته، وأنت تبغضه ولا تحبه، فطريقة المشركين طريقة واحدة، سواء في أول
الزمان أم في آخره، فبعضهم يتابع بعض.

فالمشركون يخافون آلهتهم خوف السر؛ أن يصيبهم ذلك الإله، ذلك السيد،
ذلك الولي، أن يصيبهم بشيء كما يصيبهم الله جل وعلا بالأشياء، فيقع في قلوبهم
الخوف من تلك الآلهة من جنس الخوف الذي يكون من الله جل وعلا.

ولهذا ترى عبّاد القبور وعباد الأرضة وعباد الأولياء يخافون أشد الخوف من الولي أن يصيبهم بشيء إذا تُنْقَص الولي، أو إذا لم يُقَم بحقه.

• وضابط خوف السر في اجتماع ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون من غائب حقيقةً أو حكماً.

حقيقة كأن يخاف إنساناً في المشرق وهو في المغرب كمن سمى ساحراً أو مشعوذاً أو ممن يعتقدون فيهم الكرامات كمن يسمونهم بالأولياء، أو حكماً كصاحب القبر ولو كان بجانبه.

الثاني: أن يخاف من قدرته ومشيتته بدون سبب حسي؛ سواء زعموا أنها كرامة له من الله أو من باب الشفاعة، أو استقلوا بذلك بأنفسهم.^(١) فيقال هذا الولي له القدرة على إيذاءك وإصابتك بالمرض أو أن يشلّ أركانك أو يميّتك من غير سبب ولو كنت أينما كنت.

الثالث: أن يقود ذلك إلى طاعة باطنة في القلب، وقد يترتب عليها طاعة ظاهرة له.

والخوف بهذا المعنى من العبادات العظيمة التي يجب أن يُفرد الله عز وجل بها، ومن فعل ذلك فهو من الموحدين.

^(١) أي سواء زعموا أنها كرامة يعطيها الله جل وعلا بعض أوليائه، فيؤثر في قلب من يبغضه أو يخالفه، أو في بدنه أو ماله أو أهله، أو يصيبه بخيل أو ما أشبه ذلك، أو أن ذلك من باب الشفاعة: أن الولي يطلبه من ربه ويشفع فيه، ثم يصيبه به جل وعلا؛ لأنه خالف هذا الولي.

فهذا النوع من الخوف هو الذي يختص الله سبحانه وتعالى به وحده، فالله سبحانه هو الذي يُقَدَّرُ على العبد مرض بدون سبب يعلمه، يُقَدَّرُ الموت بدون سبب بدون ما يُعلم.

وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة.

فائدة:

سمي خوف السر: لأنه يخاف ممن يخافه لسر فيه ككرامة أو شفاعاة، وأنه يأتي عقابه سراً.

وهو معروف عند عباد الأولياء والقبور: أي: أن صاحب القبر فيه سر، فمن قدم له طاعة ونذوراً نفعه سره وجاءه النفع منه، ومن لم يفعل ذلك فإن سره يضره، وقد يميته أو يمرضه أو يفقره، أو يميته أولاده وما أشبه ذلك

الثالث: الخوف المحرم: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

فالخوف الذي يلتقى في قلب المؤمن من الكفار من جراء تخويف الشيطان.
قال العلامة العثيمين: ((ما حمل على ترك واجب أو فعل محرم فهو محرم)). اهـ
ومن أمثلته: أن يخلق لحيته أو لا يقصر ثوبه خوفاً من انتقادات الناس.

ومنه أن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حماية لعرضه من الناس أو خوف انتقاد الناس.

ومنه أن يترك الصلاة؛ لئلا يعيب عليه جلساؤه ونحو ذلك.

الرابع: **خوف العبادَة**: وهو الخوف من عذاب الله، وهو الذي قال الله فيه ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان.

فائدة:

الخوف من الله تعالى يكون محموداً، ويكون غير محموداً:

فالمحمود ما حجز عن محارم الله، بحيث يحمل العبد على فعل الواجبات وترك المحرمات، فإذا حصلت هذه الغاية سكن القلب واطمأن وغلب عليه الفرح بنعمة الله، والرجاء لثوابه.

وغير المحمود ما حمل العبد على اليأس والقنوط من روح الله، وحينئذ يتحسر العبد وينكمش وربما يتهادى في المعصية لقوة يأسه.

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى الرجاء بعد الخوف؛ لأنه قرينه، فالإنسان له جناحان يطير بهما: الخوف والرجاء، وبهما يبلغ المأمن.

الرجاء من العبادات القلبية وأصل الرجاء هو الطمع أو انتظار الشيء المحبوب.

الرجاء نوعان:

- رجاء عبادة: هو أن يطمع في شيء لا يملكه ولا يقدر عليه إلا الله وحده، كالطمع في شفاء مريض أو تفريج كربة أو دخول الجنة أو النجاة من النار أو السلامة من المصائب، أو نزول المطر، أو التوفيق في الحياة، ونحو هذه من أنواع الرجاء التي لا يمكن أن تُرجى وتُطلب وتُؤمل إلا من الله جل وعلا. فهذا النوع صرفه لغير الله عز وجل شرك أكبر، وضابطه أن يرجو مخلوقا في شيء لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، كمن يرجو أن ينجحه صاحب القبر في الاختبار، أو يرجو أن ينصره الولي الميت على عدوه، أو أن يرجو أن يشفي بهيمته أو ولده أو يرزقه مالا.

- ورجاء طبيعى: إذا طمع في شيء ما يملكه ذلك الشخص، وهو قادر عليه، فهذا رجاء طبيعى.

وقد يخرج إلى الشرك الأصغر إذا رجا المخلوق في شيء يقدر عليه ويملكه، ولكنه يعلق قلبه على هذا المخلوق، وينصرف إليه القلب انصرافا تاما، فيعتمد على هذا السبب اعتمادا كلياً فهذا من الشرك الأصغر، مثل أن تعتمد عليه أن يعطيك مالا، فأنت واثق بأن يعطيك، أو أن تطمع في مهارة الطبيب، فتثق بحصول الشفاء وهذا من الشرك الأصغر.

ويدخل في هذا النوع أن يطمع ويتوقع ويرجو الشفاء والخير من الله لكن
بوسيلة محرمة كمن لبس حلقة أو خيط على أن تكون سبباً للشفاء أو فعل ما يسمى
بالشبكة يطمع من الله أن تكون سبب الألفة والاشتباك بين الزوج والزوجة، وهذا
من الشرك الأصغر كما في حديث عقبه بن عامر مرفوعاً [من تعلق تيممة فقد
أشرك].

ورجاء العبادة نوعان:

١- رجاء محمود: وهو رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج
لثوابه، ورجل أذنب ذنباً ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه
وجوده وحلمه وكرمه.

٢- رجاء مذموم: وهو رجاء رجل متمادٍ في التفریط والخطايا يرجو رحمة الله
بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.
والتمني يكون مع الكسل.

**قول تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا} أي يطلب ويؤمل؛ والمعنى: من كان يؤمل
أن يلقى ربه.**

وقوله {لِقَاءَ رَبِّهِ}: اللقاء يوم القيامة نوعان:

١- لقاء عام: لجميع الناس، وقد دل على اللقاء العام قوله تعالى في سورة
الانشقاق {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}.

٢- نوع خاص: وهذا للمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم من الله سبحانه وتعالى.

وهو المراد من الآية

وقوله: ((وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)) يدل على أن الشرك يدخل في الرجاء.

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البائدة: ٢٣].
وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: ودليل التوكل: أي أنه من العبادات القلبية العظيمة.

والتوكل: هو صدق الاعتماد على الله مع الثقة به في جلب خيرٍ أو دفع ضرٍّ؛ مع فعل الأسباب المشروعة.

قال ابن القيم: ((وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب))^(١) اهـ

فائدة ١:

الأسباب المشروعة نوعان:

١. الأسباب الشرعية: هي كل ما جعلها الله تعالى أسباباً على وقوع مسببات بنصوص الشرع، كما جعل الرقية والعسل والحبة السوداء علاجاً للأمراض، وكما جعل التقوى وصلة الرحم مصادر للرزق.

٢. الأسباب القدريّة: ما قدره الله سبحانه وتعالى من الأسباب في الأشياء وعُلم من خلال التجربة.

كمثل الأدوية سبب في الشفاء من الأمراض.

(١) مدارج السالكين (٥٢٣/٣).

وحقيقة التوكل أنه يجتمع فيه أمران:

الأول: تفويض الأمر إلى الله جل وعلا.

الثاني: عدم الالتفات إلى السبب بعد عمله.

فقد يحصل المراد به وقد لا يحصل؛ لأن حصول المراتد يكون بأشياء:

منها السبب، ومنها صلاحية المحل، ومنها خلو الأمر من المضاد، ومنها وهو

الأعظم أن يأذن الله جل وعلا بأن يكون السبب مؤثراً منتجاً للمسبب.

التوكل على غير الله تعالى أنواع:

الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من جلب المنافع ودفع

المضار، وهذا شرك أكبر.

كالذي يعتمد على المخلوق في نزول المطر وحصول الرزق أو النسل أو اعتماد

عليه في الشفاء والسلامة من الأمراض، هذا شرك أكبر، وهو المقصود بالآية

الآولى.

ويدخل فيه الاعتماد على الأموات والمقبرين وبما يسمونهم بالأولياء في دفع

الشر أو جلب الخير، فهذا أيضاً داخل في الشرك الأكبر.

الثاني: أن يتوكل على حي حاضر من ملك أو غيره فيما أقدره الله عليه من زرق

أو دفع أذى، وهذا له جانبان:

الجانب الأول: إن اعتقد أن هذا الإنسان سبب، وأن الله تعالى هو الذي أقدره

على هذا الشيء وأجراه على يديه فهذا لا بأس.

الجانب الثاني: إذا تعلق قلبه به؛ واعتقد أن الأمور لا بد أن تتم على يديه، فهذا

تعلق بالسبب وهو شرك أصغر.

كأن يعتمد على مهارة الطبيب في نجاح العملية، على السائق في النجاة من

الحوادث، وغير ذلك.

وهذا واقع في كثير من الناس إلا ما رحم الله.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: وجه الاستدلال من الآية من

أوجه:

الأول: أن الله جل وعلا أمر بالتوكل عليه ولا يأمر إلا بما يجب

ويرضى وهذا يدل على أن التوكل على الله عبادة.

الثاني: أنه جعل التوكل عليه شرطاً للإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾،

ومعنى ذلك أن الإيمان لا يحصل إلا بالتوكل على الله جل وعلا وحده،

فمن لا توكل له لا إيمان له.

الثالث: تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر والقصر، أي احصروا واقصروا

توكلكم على الله لا على غيره.

قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾:

أتى المصنف بهذه الآية ليلفت النظر إلى ثمرة التوكل، لأن أنفُس الناس

بفطرهم وجبالاتهم تهفو إلى الأسباب وتتعلق بها، فإذا توكل على الله حق توكله،

هناك ثمرة، هذه الثمرة هي في قول الله سبحانه **﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** : أي هو كافيه، كفاية عامة في كل أموره، في الرزق، وغيره.

فائدة ٢:

لا يجوز أن تقول: توكلت على الله ثم على فلان؛ لأن حقيقة التوكل لا يتخلف عنها اعتماد القلب وتفويضه وطمأنينته وتعلقه.

ودليل الرغبة والرغبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قوله: ودليل الرغبة والرغبة والخشوع: أي أنها عبادات قلبية.

الرغبة: هي الصدق في الرجاء.

والرغبة: هي الصدق في الخوف.

فالرغبة نوع من الرجاء وهي أعلاه، والرغبة نوع من الخوف وهو منتهاه.

والخشوع: هو الذل لله عز وجل.

والخشوع يكون في القلب قال تعالى: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ } . والبصر قال تعالى: { خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ } والصوت

قال تعالى: { وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ } .

ويكون في العمل . قال تعالى: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

خَاشِعُونَ } .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ﴾:

دلت على أن هذه الثلاث صفات ممدوحة، فقد رضيها الرب جل وعلا، وإذا

رضيها أحبها، وإذا أحبها دل على أنها عبادة فهي مطلوبة فصرها لغير الله يعتبر

شركا أكبر. ومن مظاهر الشرك الواضحة لدى المشركين، أنهم يقفون عند أوثانهم

من قبور وغيرها خاشعين ذليلين، فلا تلاحظُ حركةً في الجوارح، بل في الألفاظ والنظرات وذلك؛ لأن قلوبهم قد قام فيها رَغَبٌ ورَهَبٌ وخُشوعٌ؛ لاعتقادهم في صاحب القبر أو ذلك المعبود أنه يجلب النفع ويحجب المضطر ويكشف الضرّ ويفرج الكربات ويغيث اللهفات.

وقد يخشع بعضهم ويتطامن ويذل في تلك البقاع بدرجة لا تراها له في أحب الأماكن إلى الله جل وعلا من المساجد والمسجد النبوي والمسجد الحرام.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

الخشية هي الخوف المبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه، ويد على ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} أي العلماء بعظمته وكمال سلطانه، فالخشية أخص من الخوف.

مثال على الفرق بين الخوف والخشية:

إذا خِفْتُ من شخص لا تدري هل هو قادر عليك أم لا؟ فهذا خوف لأنه مع جهل.

وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية.

قال العلامة القرطبي رحمه الله: ((قيل بأن الخوف تطلّع لنفس الضرر، والخشية تطلع لفاعل الضرر)) (١). اهـ

مثال: يريد زيد أن يقتل عمرًا، فإن توجه خوف عمرو إلى القتل فإن هذا يُسمى خوفًا، وإذا توجه إلى شخص زيد فإن هذا يُسمى خشية. وهذا من أجمل ما فرق به.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾: ووجه الاستدلال: أنه سبحانه نهى أن

يتوجه بالخشية إلى غيره وأمر أن توجه إليه، ولا يأمر إلا بما يحب ويرضى.

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

قوله: ودليل الإنابة: أي كونه عبادة

ومعنى الإنابة: ((هي الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه))^(١). اهـ

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ﴾: أي: ارجعوا إليه بالطاعة.

قوله: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: المراد بالإسلام في الآية الكريمة هو الإسلام الشرعي، ومعناه: الاستسلام والانقياد لأحكام الشريعة، وهذا لا يكون إلا للطائعين.

الإنابة إنابتان:

١- إنابة لربوبيته: وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، فهذا عام في حق كل داع أصابه ضرر كما هو الواقع. وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجمع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: {ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}.^(١)

٢- إنابة لإلهيته: وهي إنابة أوليائه، إنابة عبودية ومحبة، وتتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه.

(١) طريق المحجرتين ص (١٧٣).

فالمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه؛ لأن

لفظ "الإنابة" فيه معنى الإسراع والرجوع والتقدم. ^(١)

والفرق بين التوبة والإنابة:

الإنابة هي التوبة مع الرجوع إلى حالة أحسن، فمن تاب ثم عمل من

الصالحات، فهو منيب.

ومن تاب ولم يعمل الصالحات، ولم يقبل بالطاعات ويتغير حاله فليس منيب،

وإنما هو تائب.

(١) "مدارج السالكين": "١/٤٣٤".

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي الحديث: ((إذا استعنت فاستعن بالله)).

الاستعانة: طلب العون؛ لأن الألف والسين والتاء في اللغة للطلب، فإذا قيل: استعان فمعناه طلب الإعانة.

والاستعانة أنواع:

الأول: الاستعانة بالله، وهي الاستعانة المتضمنة كمال الذل من العبد لربه مع الثقة به والاعتماد عليه، وهذه لا تكون إلا لله، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك.

الثاني: الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه فهذه على حسب المستعان عليه من خيرٍ أو إثمٍ أو مباحٍ.

كأن تطلب منه أن يعينك ويساعدك، وشرط ذلك أن يكون في أمر يقدر عليه.

الثالث: الاستعانة بالأموال مطلقاً أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدر على مباشرته فهذا شرك لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون.

الرابع: الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى وهذه مشروعة بأمر

الله تعالى في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

فكونك تستعين بالصبر وتستعين بالصلاة على أمورك هذا أمر محبوب.

وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} في هذه الآية اجتمع أمران عظيمان عليهما مدار العبودية والتوحيد. {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تبرؤ من الشرك. {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} تبرؤ من الحول والقوة، وتقديم المعمول هنا يفيد الحصر؛ والمعنى لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.

وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ((تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته ثم رأيت في الفاتحة في: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}))^(١) اهـ.

قوله: وفي الحديث: ((إذا استعنت فاستعن بالله)): المعنى: عليك أن تحصر استعانتك وطلبك العون في الله سبحانه وتعالى، فمن استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك.

(١) مدارج السالكين (٧٨/١).

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: -قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ- [الفلق: ١]، وقوله: -قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ- [الناس: ١].

ودليل الاستعاذة: أي أنها عبادة من أجل أنواع العبادات.

والاستعاذة هي: طلب الإعاذة الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه. فالمستعيذ محتتم بمن أستعاذ به ومعتصم به. والاستعاذة أنواع:

الأول: الإستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتماه حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، بشر أو غير بشر ودليلها الآيات المذكورة.

الثاني: الإستعاذة بصفة من صفاته ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق" مسلم وقوله: "أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي" أحمد وقوله: في دعاء الألم "أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" أحمد، وقوله: "أعوذ برضاك من سخطك" مسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم حين نزل قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ} [سورة الأنعام، الآية: ٦٥] فقال: "أعوذ بوجهك" البخاري

الثالث: الإستعاذة بالأموات أو الأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ
فهذا شرك ومنه قوله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَرَادَوْهُمُ رَهَقًا} [سورة الجن، الآية: ٦]

الرابع: الإستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو
غيرها فهذا جائز ودليله قوله صلى الله عليه وسلم في ذكر الفتن: "من تشرف لها
تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذبه" متفق عليه وقد بين صلى الله عليه
وسلم هذا الملجأ والمعاذ بقوله: "فمن كان له إبل فليلحق بإبله" الحديث رواه
مسلم، وفي صحيحه أيضاً عن جابر رضي الله عنه أ، امرأة من بني مخزوم سرق
فأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فعادت بأم سلمة رواه مسلم
الحديث، وفي صحيحه أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله
عليه وسلم قال: "يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث" مسلم كما لو هربت من سبع
والتجأت إلى شخص آخر يحميك، أو هربت من عدو والتجأت إلى شخص آخر
يمنعك منه. وقد يكون الالتجاء إلى أمكنة، كأن يتسلق شجرة أو يدخل في مكان،
فمثل هذا لا بأس به.

ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاضته بقدر الإمكان، وإن استعاذ
ليتوصل إلى فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيواؤه.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:

قوله: ودليل الاستغائة: أي أنها عبادة.

الاستغائة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من الشدة والهلاك، وهي أخص أنواع الدعاء.

ولذا سمي المطر غوثاً لأنه يكشف شدة القحط.

أنواع الاستغائة:

الأول: الاستغائة بالله عز وجل وهذا من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرسل وأتباعهم، ودليله ما ذكره الشيخ رحمه الله.

الثاني: الاستغائة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة فهذا شرك؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن هؤلاء تصرفاً خفياً في الكون فيجعل لهم حظاً من الربوبية.

الثالث: الاستغائة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة فهذا جائز كالاستعانة بهم قال الله تعالى في قصة موسى (فاستغائة الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه) القصص ١٥

الرابع: الاستغائة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به فيمنع منه هذه العلة، ولعلة أخرى وهي الغريق ربما أغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة.

فخلاصة الاستغاثة الجائزة بغير الله جل وعلا: أن يكون المستغاث به حيا

حاضرا قادرا يسمع.

فائدة ١:

الفرق بين الاستغاثة والاستعاذة:

الاستعاذة: طلب دفع الشر قبل وقوعه، وهذا في الغالب، والاستغاثة: طلب

رفعه بعد نزوله.

الاستعاذة دفع، والاستغاثة رفع.

في الأمور العادية إذا لم يقع عليك شر ولا تتوقع شراً فإنه يسمى استعانة.

قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ}: أي: تستجيرون ربكم

وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم.

وهذه الآية نزلت في غزوة بدر الكبرى. وكان المشركون أكثر من المسلمين

ثلاث مرات.

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
* لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، ومن السنة: ((لعن الله من ذبح لغير
الله)).

قوله: ودليل الذَّبْح: المراد بالذبح هو إراقة الدماء على وجه التقرب والتعظيم،
والمراد به ذبح القرбан والضحايا والهدايا.

والآية ودليل على كون الذبح عبادة لا يجوز صرفها لغير الله جل وعلا.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾:

النسك قيل هو: ما يتقرب به إلى الله عز وجل من الذبائح والقرابين، وقيل: إنه
يشمل كل ما يتعبد به.

قوله: (لِلَّهِ) استحقاقاً، والمحيا والممات مُلْكًا، وقوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} هذا فيه
بيان وجه استحقاقه ومُلكه، وقوله: { لَا شَرِيكَ لَهُ } هذا فيه بيان انفراده بذلك
وتأكيد ما تقدم.

ثم قال: { وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ } يعني: أن هذا الإفراد وهذا الإخلاص أمر من الله
سبحانه وتعالى، { وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } أي: أول المنقادين المبادرين لامثال هذا
الأمر.

قوله: (ومن السنة): أي الدليل على كون الذبح عبادة مما ثبت عن النبي

ﷺ قوله: ((لعن الله من ذبح لغير الله))^(١).

ووجه الاستدلال منه أن من ذبح لغير الله جل وعلا ملعون، وداخل في دعاء النبي ﷺ؛ فدل على أن صرف الذبح لغير الله جل وعلا شرك أكبر وعظيمة من العظائم، وفي المقابل الذبح لله وحده توحيد محبوب له سبحانه وتعالى.

والذبح يقع على وجوه:

الأول: أن يقع عبادة بأن يقصد به تعظيم المذبح له والتذلل له والتقرب إليه فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى، وصرفه لغير الله شرك أكبر، وهو المقصود بالآية والحديث.

الثاني: أن يقع إكراماً لضيف أو وليمة لعرس أو نحو ذلك فهذا مأمور به إما وجوباً أو استحباباً لقوله صلى الله عليه وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) البخاري ومسلم.

الثالث: أن يقع على وجه التمتع بالأكل أو الإتجار به ونحو ذلك فهذا من قسم المباح فالأصل فيه الإباحة، وقد يكون مطلوباً أو منهيّاً عنه حسبما يكون وسيلة له.

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٩٧٧) (١٥٦٧/٣) من حديث علي رضي الله عنه.

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

[الإنسان: ٧].

أي أنه عبادة.

النذر: هو أن يوجب المرء على نفسه شيئاً لم يجب عليه في أصل الشرع؛ كصلاة أو صيام أو صدقة.

وقوله سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾

دل على أنَّ النذر عبادة لا يجوز للإنسان أن ينذر لغير الله تعالى.

فمن نذر لصنم أو لولي أو لميت أو لصاحب قبر ونحوهما فهو نذر باطل يحرم الوفاء به بالإجماع وعليه أن يستغفر الله من هذا العمل؟

والنذر له حالتان:

١ - ما يكون على وجه المقابلة، وهو النذر المعلق. كقول الرجل: إن شفى الله مريضاً فله عليَّ صوم يوم، أو إن رزقت بولد فله عليَّ أن أتصدق بكذا. ونحو ذلك ابتداءً، وهذا النوع من النذر ليس بمحمود ولا ممدوح؛ بل جاءت نصوص تدل على ذمه والنهي عنه؛ كقول النبي ﷺ: ((لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً وإنما يستخرج به من البخيل))^(١).

(١) رواه مسلم (١٢٦١/٣).

٢- ما يكون مطلقاً بدون تقييد وهو النذر المنجز؛ كقول الرجل: لله عليّ أن أصوم الاثنين القادم. أو لله عليّ أن أصلي هذه الليلة إحدى عشرة ركعة. ونحو ذلك.

فهذا النوع من النذر محمود وممدوح عند بعض أهل العلم.

أنواع النذر من حيث وجوب الوفاء:

أولاً: نذر يجب الوفاء به (نذر الطاعة): وهو كل نذر كان في طاعة الله عز وجل، ودليل ذلك الآية؛ فقد أثنى الله على الذين يوفون بالنذر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه" رواه البخاري ٦٢٠٢.

ولو نذر المرء نذراً فيه طاعة ثم طرأ من الظروف ما أعاقه عن الاقتدار على الوفاء بنذره، كأن نذر أن يصوم شهراً، أو يحج أو يعتمر ولكن مرضاً أصابه، فمنعه القدرة على الصوم أو الحج أو الاعتمار أو يكون قد نذر صدقة ولكنه افتقر بما يحول بينه وبين إنفاذ ما نذر فإنه والحالة هذه ينتقل إلى التكفير عن نذره بكفارة يمين كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة اليمين. رواه أبو داود

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الفتاوى" (٤٩/٣٣): فإذا قصد الإنسان أن ينذر لله طاعة، فعليه الوفاء به، لكن إذا لم يوف بالنذر لله، فعليه كفارة يمين عند أكثر السلف.

ثانيا: نذر لا يجوز الوفاء به وفيه كفارة يمين: ويشمل هذا النوع من النذر:

١ - نذر المعصية: وهو كل نذر فيه معصية لله كأن ينذر زيتا أو شمعا أو نفقة

لبعض القبور والمشاهد أو ينذر زيارة الأضرحة والمشاهد الشريكة وهذا شبيه من بعض الوجوه بالنذر للأوثان، وكذا لو نذر أن يفعل معصية من المعاصي كالزنا أو

شرب الخمر أو السرقة أو أكل مال يتيم أو إنكار حق أحد أو أن يقطع رحمه فلا يصل قريبه الفلاني أو لا يدخل بيته دون مانع شرعي فإن هذا كله مما لا يجوز الوفاء به بحال.

والواجب عليه أن يكفر عن نذره بكفارة يمين لما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه" رواه البخاري

وعن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: "لا وفاء لنذر في معصية"

رواه مسلم

٢ - كل نذر صادم نصا: فإذا نذر مسلم نذرا وتبين له أن نذره هذا يتعارض مع

نص صحيح صريح فيه أمر أو فيه نهى لزمه التوقف عن الوفاء بالنذر ويكفر عنه بكفارة يمين ودليل ما رواه البخاري رحمه الله عن زياد بن جبير قال كنت مع ابن عمر فسأله رجل فقال نذرت أن أصوم كل يوم ثلاثاء أو أربعاء ما عشت فوافقت هذا اليوم يوم النحر فقال أمر الله بوفاء النذر ونهينا أن نصوم يوم النحر فأعاد عليه فقال مثله لا يزيد عليه. صحيح البخاري ٦٢١٢

قال الحافظ ابن حجر: انعقد الإجماع على أنه لا يجوز له أن يصوم يوم الفطر ولا يوم النحر لا تطوعا ولا نذرا.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة.

وهو: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

قوله: الأصل الثاني: أي من أصول الدين الذي لا ينبنى إلا عليها.

قوله: مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ: المراد بالمعرفة هنا العلم لأنه لا بد من الاعتقاد

الجازم.

والدين لغة: يطلق على الملك والعمل والجزاء والحساب.

اصطلاحاً: ما شرعه الله من الأحكام والأصول والأركان على لسان رسوله.

والإسلام ينقسم إلى قسمين وهو:

❖ **الإسلام العام:** وهو الذي فسرهُ الشيخ بما بعده فقال: وهو: الاستسلام لله

بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

وهذا الدين هو الذي اجتمعت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، فدَعَوْا إلى

توحيد الله وإلى الاستسلام له بالتوحيد بعبادته وحده دونما سواه وخلع الآلهة

والأنداد والبراءة من كل معبودٍ سِوَى اللَّهِ سبحانه ومن كل عبادةٍ لِمَا سِوَى الرَّبِّ

سبحانه وتقدسست أسماؤه.

والانقياد لله سبحانه ظاهراً بطاعته سبحانه فيما أمر وبالانتهاء عما نهى عنه

سبحانه وتعالى

هذا هو الإسلام العام، وهو الذي ينطبق على رسالة كل رسول، وهو الذي ينطبق على إسلام كل شيء له كما قال الله: أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [آل عمران: ٨٣].

*** والإسلام الخاص:** وهو الذي بُعث به محمد ﷺ، وهو الذي إذا أُطلق في النصوص قُصد على وجه الخصوص؛ كما في حديث بني الإسلام على خمس، وحديث جبريل الطويل وفيه هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. **قوله بالأدلة:** أي لا بد أن يكون عليه دليل إما من الكتاب أو السنة. وهو تنبيه على أن المقلد ينبغي أن يقلد من كان يعلم أنه لا يعمل ولا يفتي إلا بالدليل.

حتى يكون عمله عن اقتناع فلا يتشكك بعد ذلك في أمر دينه. ^(١)
قوله: وهو: الاستسلام لله: بمعنى أنه يذل ويخضع وينقاد لله تعالى على ما جاء في الشرع، وإنما سمي المسلم مسلمًا لخضوع جوارحه لطاعة بربه.

(١) فلا بد أن يكون معه أدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على ما خلق له، ليكون على نور وبرهان وبصيرة من دينه، فإن لم يكن على حقيقة من دينه فإنه يخشى عليه في حياته، وبعد مماته عند سؤال الملكين إذا سألاه في القبر أن يصل له الشك، فيجيب الجواب السيئ يقول: هاهاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، بخلاف من يعرف أدلة دينه من الكتاب والسنة وكان على القول الثابت في الدنيا فإنه يقول عند سؤال الملكين: ربي الله وديني. حاشية الأصول الثلاثة.

وقوله: "بالتوحيد" هذا شامل لتوحيد الألوهية وما يستلزمه من الربوبية والأسماء والصفات، والمعنى: أن يستسلم ويخضع لله عز وجل وأن يفرد بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

قوله: "والانقياد له بالطاعة" يشتمل فعل المأمور وترك المحذور.

قوله: "والبراءة من الشرك"^(١): أي أنه لا يتحقق الإسلام بدون البراءة من الشرك وأهله، وأصل هذه البراءة بُغض القلب للشرك وأهله، ويتبع هذا البغض تكفير من كفره الله ورسوله، ومعاداتهم، وجهادهم عند مشروعية الجهاد.

(١) في بعض النسخ: (والخلوص من الشرك) وفي النسخ المعتمدة (البراءة من الشرك وأهله) وهو أدل على المراد من لفظ (الخلوص من الشرك)، لأن الخلوص من الشرك إنما هو خروج عن الشرك، وليس فيه معنى البراءة من الشرك وأهله.

وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكل مرتبة لها أركان.

قوله: وَهُوَ: أي الدين.

قوله وهو ثلاث مراتب: المراتب: جمع مرتبة، والمرتبة والرتبة: هي المنزلة، والمكانة.

ودليل أنه ثلاث مراتب هو حديث جبريل الطويل الذي ذكر فيه الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان.

وأما ترتيبها فهي كما يلي:

الأولى: الإسلام وهي مرتبة الأعمال الظاهرة.

والثانية: الإيمان وهي مرتبة الاعتقادات الباطنة.

والثالثة: الإحسان وهي مرتبة إتقانها؛ أي: عمل الباطن وعمل الظاهر،

وحقيقة هذه المرتبة: عبادة الله على مقام المشاهدة أو المراقبة، وتُسمى الإحسان.

فالجامع لهذه المعاني أن الإسلام يتعلق بالعمل الظاهر، والإيمان يتعلق بعمل

القلب، والإحسان هو الغاية في عمل القلب وعمل الظاهر، فالإحسان هو المنتهى

في أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

فهذه المراتب بعضها أعلى من بعض، فأول مرتبة من مراتب الدين هي

الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان.

فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، فالمنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلى الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهراً، إذا صلوا مع المسلمين وزكوا وعملوا العمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

ومرتبة الإيمان يتفاوت أهلها على قدر إيمانهم، فمنهم المقربون وهم أصحاب أعلى الدرجات، ثم الأبرار دونهم، ثم الظالم لنفسه وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، لكنه محافظ على الأوامر، فهو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: ٣٢].

قوله الإحسان: وهو أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله.

وهو على درجتين:

المقام الأول وهو أعلاهما: أن تعبد الله كأنك تراه وهذا يسميه بعض العلماء (مقام المشاهدة) وهو أن يعمل العبد كأنه يشاهد الله عز وجل بقلبه فيضيئ القلب بالإيمان حتى يصير الغيب كالعيان فمن عبد الله عز وجل على استحضار قرب منه وإقباله عليه وأنه بين يديه كأنه يراه أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبه والتعظيم.

المقام الثاني: مقام الإخلاص [والمراقبة] وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه وإطلاعه عليه وقربه منه فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله، وإرادته بالعمل. وهذا المقام إذا حققه العبد سهل عليه الوصول إلى المقام الأول. ولهذا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم تعليلاً للأول فقال: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وفي بعض ألفاظ الحديث: "فإنك إلا تكن تراه فإنه يراك" فإذا تحقق في عبادته بأن الله تعالى يراه ويطلع على سره وعلايته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني وهو دوام استشعار قرب الله تعالى من عبده ومعيته حتى كأنه يراه. نسأل الله من فضله العظيم.

فائدة:

الإسلام عند الإطلاق يشمل الدين كله ويدخل فيه الإيمان، وأنه إذا قرن مع الإيمان فُسر الإسلام بالأعمال الظاهرة من أقول اللسان وعمل الجوارح، وفُسر الإيمان بالأعمال الباطنة من اعتقادات القلوب وأعمالها، والإيمان كذلك. ويدل على هذا التفريق قوله تعالى: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات: من الآية ١٤]. وقوله تعالى في قصة لوط: "فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [الذاريات: ٣٥-٣٦].

فإنه فرق هنا بين المؤمنين والمسلمين لأن البيت الذي كان في القرية بيت إسلامي في ظاهره، إذ إنه يشمل امرأة لوط التي خانتها بالكفر وهي كافرة، أما من أخرج منها ونجا فإنهم المؤمنون حقاً الذين دخل الإيمان في قلوبهم.

قوله: وكل مرتبة لها أركان: الأركان جمع ركن، وهو جانب الشيء الأقوى الذي لا يقوم ولا يتم إلا به.

وسياتي ذكرها.

فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

هذه المرتبة الأولى من مراتب الدين وهي مرتبة الإسلام وبيان أركانه.

فقوله فأركان الإسلام خمسة: دليله الحديث الصحيح الذي رواه البخاري

ومسلم: ((بني الإسلام على خمس)).

وقوله في الحديث: ((بني)) تمثيل للإسلام ببناء أقيم على خمسة أعمدة لا يستقيم

إلا بها.

قال ابن رجب رحمه الله: " والمراد من هذا الحديث، أن الإسلام مبني على هذه

الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنائه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيان، ودعائم

البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وببقية خصال الإسلام كتتممة البنيان،

فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينقص بنقص ذلك، بخلاف نقص

هذه الدعائم، فإن الإسلام يزول بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد

الشهادتين ". اهـ

والذي بناه هو الله سبحانه المشرع الذي أمر به، والنبي ﷺ مبلغ لتشريع ربه

جل وعلا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:

وقوله الإسلام: والمقصود به هو الإسلام الخاص وهو الذي جاء به نبينا محمد

ﷺ.

قوله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله: هما ركن واحد وذلك

لأمرين:

الأول: لأن هاتين الشهادتين أساس صحة الأعمال وقبولها، فالعبادة لا تُقبل إلا بالإخلاص والمتابعة، والإخلاص تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله والمتابعة تضمنته شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، فكانت العبادات تنبني على تحقيقهما معًا.

الثاني: أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله، فالشهادة له بالرسالة والعبودية من تمام أن لا إله إلا الله، فلا تتم الشهادة إلا بهما معًا.

والشهادة لا تكون شهادة حتى يجتمع فيها هذه الثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتقد ويعلم بقلبه صحة المشهود به، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا عِلْمَ له به.

الثانية: أن يتكلم بلسانه بما يشهد به.

الثالثة: أن يُعْلِمَ غيره بما يشهد به، ويُبينه له.

فيكون معنى الشهادة هنا: العلم بأنَّه لا إله إلا الله، والنطق بذلك، والإعلام

به.

أي: أعلمُ وأعتقد بقلبي، وأقولُ، وأبينُ بلساني: أنه لا إله إلا الله.

فائدة:

أطلق لفظ الشهادة على الاعتقاد، لبيان أنه لا بد من الاعتقاد الجازم فهو من باب التوكيد والجزم، حتى هذا الذي تعتقده كأنك تشاهد هذا الذي تعتقده وتراه رأي العين فتشهد به.

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

(لا إله): نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله إلا الله، مثبتًا للعبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه.

بدأ المصنف رحمه الله بذكر الأدلة على أركان الإسلام.

قوله: فدليل الشهادة: مراده الشهادة لله تعالى وحده بالألوهية، وهي قوله: (لا إله إلا الله)، أنها ركن من أركان الإسلام، بل هي أعظم أركانه فأعظم شهادة هي شهادة التوحيد من أعظم وأجل شاهد وهو {الله} سبحانه وتعالى ثم {والملائكة} على أعظم مشهود به وهو أنه لا إله إلا الله. وأطلق لفظ الشهادة على شهادة أن لا إله إلا الله، لأنها أعظم شهادة في الوجود من أعظم وأجل شاهد، على أعظم مشهود به، فلا ينصرف الإطلاق إلا إليها.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: شهد تأتي بمعنى أَخْبَرَ وَيَبِّنَ وَأَعْلَمَ وَحَكَمَ وَقَضَى، وكلها حق ومراعاة هنا.

قال ابن القيم: وشهادة الله جل وعلا لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك وتكلمه به وإعلامه وإخباره لخلقه به وأمرهم وإلزامهم به^(١). اهـ

قوله: {وَأَوْثُوا الْعِلْمَ}: المراد بالعلم هنا: العلم الشرعي الذي هو نور القلوب وحياتها، ويدخل فيهم رسله الكرام دخولا أوليا.

قوله: {قَائِمٌ بِالْقِسْطِ}: أي بالعدل، والعدل يكون في القول، وفي الفعل، وفي الحكم، فهو عز وجل حكمه عدلٌ، وقوله عدلٌ، وفعله عدلٌ.

الآية تدل على فضل العلم من وجهين:

الأول: أن الله تعالى خصهم بالذكر دون سائر البشر.

الثاني: أن الله تعالى قرن شهادتهم بشهادته.

قوله: ومعناها: أي معنى هذه الشهادة؛ وهي كلمة التوحيد.

قوله: لا معبود بحق إلا الله:

فسر الإله بمعنى المعبود لأمرين:

الأول: لأنه الذي يقتضيه لسان العرب.

فأصل إله بمعنى: مألوه، من ألّه يألّه إلهة، أي: عبد يعبد عبادة، والتألّه في لغة

العرب معناه: التعبد.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/٤٥١).

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ رُوْبَةِ بْنِ الْعَجَّاجِ:

لله دُرُ الغانيات المدة
سَبَّحْن واسترجعن من تألّهي (١)
يَعْنِي: مِنْ تَعَبُّدِي وَطَلْبِي اللَّهَ بِعَمَلٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّأْلَةَ التَّفَعُّلُ مِنْ: أَلَهْ يَأْلُهُ،
وَأَنَّ مَعْنَى أَلَهْ إِذَا نُطِقَ بِهِ: عَبْدَ اللَّهِ. وَقَدْ جَاءَ مِنْهُ مَصْدَرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ
نَطَقَتْ مِنْهُ بِفَعْلٍ يَفْعُلُ بِغَيْرِ زِيَادَةٍ.

الثاني: لأنه الموافق للقرآن.

قال جل وعلا الرِ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ [هود: ٢-١].

وقوله سبحانه: اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ [المؤمنون: ٢٣]

فقوله: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أتى بعد أمرهم بعبادة الله جل وعلا وحده دون

ما سواه. (٢)

(١) ينظر تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (٢٢٢/٦).

(٢) تفسيرها عند الأشاعرة والجهمية والرافضة والباطنية والصوفية والقبورية: بـ "لا رب إلا الله" أي لا خالق

ولا متصرف إلا الله، فهم يفسرون الألوهية بمعنى الربوبية فعلى كلامهم إن الكفار أتوا بـ "لا إله إلا الله"

لأنهم مقرون بالربوبية في الجملة وهذا يردده الإجماع.

وتفسيرها عند الفلاسفة لا موجود إلا الله فمن أثبت وجود الله فإنه موحد وعلى هذا الكلام فإبليس من

الموحدين لأنه يثبت وجود الله.

وتفسيرها عند العلمانيين هو الإقرار بربوبية الله وبعض الأمور الشخصية أما التشريع والحكم والأمر والنهي

فليس لله.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَ: (وَيَذَرُكَ وَإِلَٰهَتَكَ) قَالَ: عِبَادَتُكَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يُعْبُدُ وَلَا يَعْبُدُ "

فخلاصة معناها:

لا إله يقصد بشيء من العبادة وهو مستحق لها وأهل لتلك العبادة إلا الله، فإنه هو المستحق للعبادة دون غيره.

و"لا" نافية للجنس وتسمى بـ"لا التبرئة"، فإذا قال: لا إله إلا الله، تبرأ من جميع المعبودات إلا الله.

و"إله" اسم "لا" والخبر محذوف، ويقدر بحق لقول الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} فيكون الكلام: لا معبود بحق. "إلا الله" سبحانه وتعالى. وما عبد من دون الله فهي آلهة باطلة.

والنحويون يقدرון الخبر كلمة "موجود"، وهذا التقدير ليس بصحيح إذ لا يصح أن يقال: إله موجود إلا الله؛ لأن فيه آلهة موجودة كثيرة غير الله سبحانه وتعالى. مثل الأشجار والأحجار والأشخاص إلى غير ذلك. فهذا التقدير لا يصلح.

قوله: (لا إله): نافية جميع ما يُعبد من دون الله إلا الله، مثبتاً للعبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه.

أي: أن هذه الكلمة العظيمة اشتملت على نفي وإثبات.

ف"لا إله إلا الله" لها ركنان:

الأول: النفي "لا إله".

الثاني: الإثبات "إلا الله".

فلا بد من الجمع بين النفي والإثبات؛ فالنفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ} [البقرة: ٢٥٦] {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء: ٣٦].

(فلا إله): نافياً وجود معبود بحق سوى الله.

(إلا الله): مثبتاً العبادة لله وحده، دون كل من سواه.

فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفي الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً.

فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد، فهو المنافق.

وإن عمل بخلافها من الشرك، فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم {فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء من الآية: ١٤٥].

واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنها لا تنفعه، ولو قالها ألف مرة، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد

القبور والأصنام، فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها، وما أشبهه من الأحاديث.

معنى شهادة أن لا إله إلا الله: هو عبادة الله وترك عبادة ما سواه؛ فمن استكبر عن عبادته، ولم يعبد فليس ممن يشهد أن لا إله إلا الله؛ ومن عبده، وعبد معه غيره فليس هو ممن يشهد أن لا إله إلا الله.

فائدة:

أما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقر به المؤمن والكافر، اجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها: لا قادر على الاختراع، أو أن معناها: الإله، هو الغني عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم الإلهية.. ولكن ليس هو المراد بمعنى: "لا إله إلا الله"، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به، ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرتهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى: "لا إله إلا الله"، وأبوا على النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف من الآية: ١٠٦].

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها، وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها، ولا يعملون به، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بالحب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعل المشركون الأولون.

ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان، أو بتربته ونحو ذلك.. لم يحلف إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب! وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى.

وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بإلهه الذي يعبد عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرّحون بذلك، والحكايات عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا بأسمائهم، ودعوهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب! وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون لـ "الكبير المتعال"، فاقرأ قوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: ٦٥]، وقوله:

{وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ. ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} [النحل: ٥٣-٥٤].

وكثير منهم قد عطّلوا المساجد وعمّروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه، أخذ في دعاء صاحبه باكيًا خاشعًا ذليلاً خاضعًا، بحيث لا يحصل له ذلك في الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكروب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل -فضلاً عن عالم- أن التلفظ بـ: "لا إله إلا الله" مع هذه الأمور تنفعهم؟! وهم إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم؟! انتهى^(١)

قوله: لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

كما أن الله تعالى هو المتفرد في ملكه، فهو المتفرد بالعبادة؛ لأن من أظلم الظلم أن يجعل المخلوق الذي ليس شريكاً لله في الملك شريكاً معه في العبادة تعالى وتقدس. ولهذا يحتج تعالى على من أنكر ألوهيته بما أقرب به من ربوبيته، فإن توحيد الربوبية هو الدليل على توحيد الإلهية.

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٩) للعلامة سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قوله: وتفسيرها الذي يوضحها: أي: تفسير شهادة لا إله إلا الله جاء موضحاً ومبيناً في القرآن في غاية الإيضاح والبيان.

فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٦، ٢٨].
هذا تفسير الشهادة في هذه الآية.

فقوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ} هذا النفي بمعنى لا إله.

وقوله: {إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}: هذا الإثبات بمعنى إلا الله.

وقوله: (فإنه سيهديني): تعليل لإفراده بالعبادة، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يملك الهداية، وأن هذه البراءة من هداية الله له، وأن كل من خالف هذه البراءة لفظاً أو معنى فإنه بعيد عن هداية الله سبحانه وتعالى.

قوله: (وَجَعَلَهَا) يعني تلك الكلمة (كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) يعني في ولد إبراهيم، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي لعلهم يرجعون من الشرك إلى تحقيق هذه الكلمة

وفي الآية الثانية: قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].
قوله: أَلَّا نَعْبُدَ هذا النفي، وقوله: إِلَّا اللَّهَ هذا الإثبات.

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].
ومعنى (شهادة أن محمداً رسول الله): طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما عنه نهى وزجر وألاَّ يعبد الله إلاَّ بما شرع.

قوله: ودليل شهادة أن محمداً رسول الله: أي الدليل على أنه مرسل من الله عز وجل، وما يتبع ذلك من لوازم هذه الشهادة.
ومعنى هذه الشهادة: هو الاعتقاد والعلم بأن محمداً رسول من عند الله، فتعتقد ذلك اعتقاداً يصحبه إخبار وقول، فهو عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب.
فيجب على العبد أن يعلم بقلبه علم اليقين أن يشهد أن محمداً رسول الله وينطقها بلسانه ويعمل بما دلَّت عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

هذه الآية بينت المقصود وهو إثبات أن محمداً ﷺ هو عبدالله ورسوله ﷺ، والدلالة فيها واضحة ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾: اللام لام القسم، والمقسم هو الله جل وعلا، والمقسم هو الله، والمقسم به هو الله جل وعلا، على مجيء الرسول لنا من أنفسنا.

وهذا لتأكيد الكلام وتعظيمه في نفس السامع؛ لأنه أكد بالقسم من رب العزة والملكوت سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي يعرفونه ويعرفون صدقه.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أصل العنت بمعنى المشقة، ومعنى {عَزِيزٌ عَلَيْهِ}، أي: شديد عليه كل ما فيه مشقة عليكم من آصار وأغلال، ف(عزيز) إذا عديت بـ (على) كان معناها: الثقل والشدة.

وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي: على هدايتكم وإنقاذكم من النار، فالرسول صلى الله عليه وسلم حريص أشد الحرص على هداية أمته.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، يعني: أن الرأفة والرحمة خاصة بالمؤمنين، وأما هدايته فهي عامة لجميع الناس، فمن شاء الله تعالى هدايته اهتدى ومن شاء الله إضلاله ضل.

فهذا الدليل النقلي على صدق نبوته ورسالته ﷺ.

• وأما الدليل العقلي على أن النبي ﷺ رسول الله كثيرة ومنها:

أن ترك الله خلقه بلا أمر ولا نهي لا يناسب في حق الله، ونبه عليه في قوله:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

ومنها: أن قول الرجل ((إني رسول الله))، إما أن يكون خير الناس، وإما أن يكون شرهم وأكذبهم، والتمييز بين ذلك يُعرف بأمور كثيرة، ونبه على ذلك بقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

ومنها: شهادة الله كما قال الله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].
ومنها: شهادة أهل الكتاب بما في كتبهم، كما في الآية.

ومنها: وهي أعظم الآيات العقلية، هذا القرآن الذي تحدّاهم الله بسورة من مثله، ونحن إن لم نعلم وجه ذلك من جهة العربية، فنحن نعلمها من معرفتها بشدّة عداوة أهل الأرض له، علمائهم، وفصحائهم، وتكريره هذا، واستعجازهم به، ولم يتعرضوا لذلك، على شدّة حرصهم على تكذيبه، وإدخال الشبه على الناس.
ومنها: تمام ما ذكرنا، وهو إخباره سبحانه أنه لا يقدر أحد أن يأتي بسورة مثله إلى يوم القيامة؛ فكان كما ذكر، مع كثرة أعدائه في كل عصر، وما أعطوا من الفصاحة والكمال والعلوم.

ومنها: نصرة من اتبعه ولو كانوا أضعف الناس.
ومنها: خذلان من عاداه وعقوبته في الدنيا، ولو كانوا أكثر الناس وأقواهم.
ومنها: أنه رجل أمي لا يخط، ولا يقرأ الخط، ولا أخذ عن العلماء ولا ادّعى ذلك أحد من أعدائه، مع كثرة كذبهم وبهتانهم؛ ومع هذا: أتى بالعلم الذي في

الكتب الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] (١).

ومنها: انشقاق القمر، وحنين الجذع، ونبوع الماء بين أصابعه، وإطعام مئین من صاع شعير، وغير ذلك من آياته المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير، مما لا يحصى كثرة.

ومنها: إذعان ملوك اليمن والبحرين وغيرهما لأمره، للآيات التي صحت عندهم عنه، فنزلوا عن ملكهم طوعاً، وكذا كل من اتبعه لما بهرهم من آياته.

قوله: وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: أي ما تقتضيه هذه الشهادة من الأمور.

قوله: طاعته فيما أمر: يعني امتثال أمره واجتناب نهيه.

ومعنى الطاعة هي الموافقة على وجه الاختيار.

فإن كان أمر إيجاب فيلزمه أن يعتقد أنه حق ويعمل به، وإن كان أمر استحباب فلا بد من اعتقاد أنه حق ولو لم يفعله، فلو رده بقلبه فيكون ناقضاً لشهادة أن محمداً رسول الله.

(١) ينظر الدرر السنية (٩٢/٢).

قال شيخ الإسلام: "وقد ذكر الله طاعة الرسول وإتباعه في نحو من أربعين موضعاً من القرآن كقوله تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء: ٨٠]."
اه مجموع الفتاوى (١ / ٤)

قوله: وتصديقه فيما أخبر

أي: فلا بد من تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به، ومن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وإنما وجب تصديقه صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، فخير صدق قطعاً. فهو الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وأمين الله على وحيه فكل شيء أخبر به فهو حق وصدق، لا كذب فيه ولا خلف.

قوله: واجتناب ما عنه نهى وزجر:

لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: من الآية ٧]،

ولقوله ﷺ: "ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه".

قوله: "وَأَلَّا يَعْبُدَ اللَّهُ إِلَّا مَا شَرَعَ": أي أن العبادة ليست بالأهواء ولا بالبدع

ولا بالاجتهاد الذي لم يبين على دليل صحيح، وإنما العبادة مبنية على الاتباع وما جاء به الشرع.

قال ابن القيم: (كل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله

تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء). مدارج السالكين (١ / ٨٤)

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

قوله: وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: أي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فهي تفسير كلمة التوحيد، فقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ هذا نفي، وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هذا الإثبات فهي معنى لا إله إلا الله، والضمير في قوله: {وَمَا أُمِرُوا} يعود إلى الذين كفروا في الآيات التي قبل هذه.

والمعنى أي: وما أمر الذين كفروا إلا ليوحدوا الله ويفردوه بالعبادة، حنفاء مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام.

قوله: ودليل الصلاة: قوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

هذا الشاهد لدليل الصلاة بأنها واجبة، وأنها ركن من أركان الإسلام الخمسة.

فقوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي وليقيموا؛ فهي معطوف على "ليعبدوا" فدل على أنه مأمور بها.

والصلاة هي التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال على هيئة مخصوصة مفتوحة بالتكبير ومختمة بالتسليم.

ومعنى وَيُقِيمُوا: عن ابن عباس قال: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها.

وقال قتادة: إقامتها المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها. (١)
وكل هذه المعاني صحيحة، فإقامة الصلاة يشمل ذلك كله، ويجمع هذه المعاني أن يقال: إقامة الصلاة: عبارة عن إدامتها، والمحافظة عليها في مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها.

فائدة:

إنما سمي فعل الصلاة على هذا الوجه إقامة لها؛ إنما هو من تقويم الشيء، من قولهم: قام بالأمر إذا أحكمه وحافظ عليه.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٦٨)

فائدة:

في حكم تارك الصلاة:

أما تاركها جحوداً فقد أجمع العلماء على أن تارك الصلاة جحوداً لفرضيتها كافرٌ مُرتدٌ يُستتاب، فإن تاب وإلا قتل كُفراً لأنه جحد شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة. (١)

وأما تاركها تهاوئاً وكسلاً فجمهور أهل العلم على كفره أيضاً، ولو صام وزكى وحجَّ، وذلك لدلالة الكتاب والسنة على ذلك، وقول جمهور الصحابة ومنهم من قال عليه إجماع الصحابة، فقد قال شقيق بن عبد الله عن الصحابة رضي الله عنهم ((كانوا لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر إلا الصلاة)) (٢).

قال الإمام ابن القيم: ((وقد دلّ على كفر تارك الصلاة: الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة)) (٣)

ودلّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وآله: ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٧ / ٥٣).

(٢) رواه الترمذي.

(٣) كتاب الصلاة، ص ١٧.

كفر))^(١)، وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ((بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة))^(٢).

وغير ذلك من الأدلة.

قوله: ودليل الزكاة: أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾.

قوله: (ودليل الصيام): أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

والمعنى: فُرض عليكم الصيام.

قوله: (ودليل الحج): أي دليل وجوبه وفرضيته قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومعنى الآية: ولله على الناس فرض حج البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وأما من لم يستطع لا يجب عليه الحج.

(١) رواه أحمد والنسائي

(٢) رواه مسلم.

المرتبة الثانية: الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

انتهى من المرتبة الأولى من مراتب الأصل الثاني ودخل في المرتبة الثانية وهي الإيمان، فقوله **قوله: ((الإيمان بضع وسبعون شعبة))** يعني به اسم الإيمان العام الذي يدخل فيه الإسلام، وتقدم معنا أن الإيمان إسلام وزيادة فهو أوسع منه.

فالإيمان إذا أطلق الإيمان أريد به الدين كله.

قال شيخ الإسلام:

لَفْظُ "الْإِيمَانِ" إِذَا أُطْلِقَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ يُرَادُ بِهِ مَا يُرَادُ بِلَفْظِ "الْبِرِّ" وَبِلَفْظِ "التَّقْوَى" وَبِلَفْظِ "الدِّينِ" كَمَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيَّنَّ أَنَّ " {الْإِيمَانَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ} " فَكَانَ كُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ "الْبِرِّ" يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ ذَلِكَ إِذَا أُطْلِقَ وَكَذَلِكَ لَفْظُ "التَّقْوَى" وَكَذَلِكَ "الدِّينُ" أَوْ دِينُ الْإِسْلَامِ. اهـ (١)

قوله: المرتبة الثانية: (الإيمان): أي المرتبة الثانية من مراتب الدين الثلاث.

الإيمان لغة هو: هو التصديق الجازم المتضمن معنى الإقرار.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧ / ١٧٩).

وفي الشرع: هو قول وعمل واعتقاد.

قال الإمام البغوي: (اتفقت الصحابة والتابعون ومن بعدهم من علماء السنة

على أن الأعمال من الإيمان... وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة).^(١)

وروى الإمام الالكائي عن الإمام البخاري قوله: (لقيت أكثر من ألف رجل

من العلماء بالأمصار فما رأيت أحد منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد

وينقص). قاله الحافظ في الفتح (٤٧/١)

وهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قال شيخ الإسلام: ((المأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف وهو

مذهب أهل الحديث وهو المنسوب إلى أهل السنة أن الإيمان قول وعمل يزيد

وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية))^(٢).

قال ابن عبد البر: (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا

عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها

عندهم إيمان). التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٣٨ / ٩).

والأدلة على ذلك كثيرة، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:

[٢

(١) شرح السنة ٣٨/١، ٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى (٥٠٥/٧).

وما كان فيه من زيادة فإنها إذا تُركت أو ذهبت رجع إلى نقص.

ومن الأدلة قوله جل وعلا: ﴿لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

الإيمان على ثلاث درجات:

درجة أصل الإيمان: من أتى بأصل الإيمان فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا

رسول الله وعمل بأركان الإسلام الظاهر، لكنهم وقعوا في كبائر وآثام.

ودرجة الإيمان الواجب: وهو من حقق الإيمان الواجب بأداء الواجبات

واجتناب المحرمات إيماناً واحتساباً فهذا مؤمن.

ودرجة كمال الإيمان: وأصحاب هذه الدرجة هم المحسنون؛ فإنهم تقربوا إلى

الله تعالى بالفرائض والنوافل واجتنبوا المحرمات والمكروهات، وحققوا الإيمان

بقلوبهم وألستهم وجوارحهم؛ فكان سعيهم لله، وهذا السعي يشمل الحب

والبغض والعطاء والمنع، وهذه جوامع خصال الإيمان؛ كما في سنن أبي داود

وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال ((من أحب لله و أبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان))

قال ابن القيم رحمه في إغاثة اللهفان شارحاً هذا الحديث: (إن الإيمان علم

وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان: عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما

عمل الجوارح فعلا وتركاً وهما العطاء والمنع؛ فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى كان

صاحبها مستكمل الإيمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من إيمانه بحسبه).

فالدرجة الأولى هي مرتبة الإسلام، والدرجة الثانية: مرتبة الإيمان، والدرجة الثالثة: مرتبة الإحسان.

قوله: الإيمان بضع وسبعون شعبة: هذا لفظ الحديث الذي رواه مسلم في "صحيحه".

هذا الحديث يدل على أن شعب الإيمان متفاوتة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر أعلاها وذكر أدناها، وترك ما بين ذلك، ولم يرد في السنة نص يحدد هذه الشعب، وقد اجتهد جمع من أهل العلم في عدّها وفي حصرها. فمنهم من وصل إلى هذا العدد؛ فجمع أوامر الشريعة ومكارم الأخلاق وكل ما هو من باب البر؛ فوصل إلى هذا العدد. ومنهم من قارب هذا العدد. ويكفي أن نعلم أن كل خصلة من خصال الخير فهي من شعب الإيمان.

البضع من الثلاثة إلى التسعة والشعبة هي الطائفة والخصلة.

قوله: "فأعلاها قول لا إله إلا الله" هذه أعلى الشعب، وهي كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وهي كلمة التقوى، وهي أساس الملة.

وقوله "أدناها"، يعني: أقل شعبة من شعب الإيمان "إمالة الأذى عن الطريق"، أي: تنحية الأذى عن الطريق من شعب الإيمان.

وقوله: "والحياء شعبة من الإيمان" الحياء: هو خلق رفيع يبعث على فعل الخير واجتناب القبيح، وهو أفضل الأخلاق وأعظمها.

وأركانها ستة:

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.
والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾
[البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

قوله: وأركانها ستة: أي أركان الإيمان بمفهومه الخاص.

ودليله الآيات والحديث ونقل الإجماع على ذلك.

وهذه الأركان هي أصول الإيمان، وشعب الإيمان ترجع إلى هذه الأصول، لأن
الشعبة لا بد لها من أصل، فالشعبة تتشعب من أصل.
وهذا يفيد بالتمثيل أن الإيمان كالشجرة لها أصول وشعب هي أغصانه المتفرعة
عنه.

(أن تؤمن بالله): أولها الإيمان بالله، والإيمان بالله يشمل أموراً أربعة: -

الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى، الإيمان بربوبيته، الإيمان بألوهيته، الإيمان بأسمائه
وصفاته.

(وملائكته): الإيمان بالملائكة ثاني أركان الإيمان، والملائكة جنس من الخلق

مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم وبأمره يأترون.

والإيمان بالملائكة يشمل أموراً أربعة: -

الإيمان بوجودهم وأنهم جنس مخلوق، الإيمان بوظائفهم المعزوة اليهم، الإيمان بأسمائهم، كأسماء جبريل وميكائيل وإسرافيل، وعند جماهير المؤرخين عزرائيل وهو اسم ملك الموت، الإيمان بصفاتهم، ومن الصفات ما وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - به رسول الوحي المسمى جبرائيل حيث إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبر أنه رآه على صورته الحقيقية وأن له ستائة جناح فهذه صفة.

(وكتبه): الإيمان بالكتب ثالث أركان الإيمان الستة.

والإيمان بالكتب يشمل أموراً أربعة: -

الإيمان بكونها منزلة من الله، الإيمان بما جاء فيها من أخبار تصديقا بها، والعمل بما امر العبد فيها من مأمورات، الانتهاء عما نهى العبد عنه فيها. وهذا يشمل جميع الكتب، ولا ريب أن كتاب الله المسمى بالقرآن مهيمن على جميع الكتب وناسخ لها وهو الحاكم عليها.

(ورسله): الإيمان بالرسل رابع أركان الإيمان الستة. والرسل واحد رسول.

والإيمان بالرسل يشمل أموراً أربعة: -

أنهم مرسلون من الله، الإيمان بالأخبار التي يأتون بها تصديقاً، الائتمار بما أمروا به، الانزجار عما زجروا عنه.

والرسول ﷺ هو الخاتم، ورسالته هي الرسالة الخاتمة المهيمنة.

(واليوم الآخر): الإيمان باليوم الآخر هو خامس أركان الإيمان. واليوم الآخر:

هو ما يتعلق بالحياة بعد الموت، وهذا يدخل فيه أمور: -

الحياة البرزخية.

ثانياً: الحياة في المحشر.

ثالثاً: الحياة في دار النعيم أو دار الجحيم.

فكل ذلك داخل في مسمى الإيمان باليوم الآخر.

ومما ألحقه أهل العلم والفقه بالإيمان باليوم الآخر ما يسمى بأشراط الساعة

لكونها تحصل في آخر الزمان والنبى - صلى الله عليه وسلم - قال بعثت أنا

والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والتي تليها.

(وبالقدر خيره وشره): الإيمان بالقدر خيره وشره هو سادس أركان الإيمان.

(الْقَدَر): هو ما يقضي به الله - سبحانه وتعالى - على خلقه.

والإيمان بالقدر له أربع مراتب: -

أولها: مرتبة العلم. وثانيها: مرتبة المشيئة. وثالثها: مرتبة الكتابة. ورابعها:

مرتبة الخلق.

فالله حيث قدر المقادير عالم بها قبل كونها مقدرة والله حيث قدر المقادير

مشيئته لا تسبقها مشيئة ولا يغلبها مشيئة، والله حيث قدر المقادير قد كانت بعد

كتابتها لها - سبحانه وتعالى -، ومن ثم يقال مراتب القدر بعضها مترخ عن بعض،

فلم تكن جملة واحدة، فعلم الله - سبحانه وتعالى - سابق لمرتبة الكتابة، فالله عالم

بمقادير الخلق قبل أن تكتب، ومن ذلك فمرتبة المشيئة سابقة لمرتبة الكتابة، فالله لم يكتب شيئاً إلا وقد شاء - سبحانه وتعالى -، ومرتبة الكتابة سابقة لمرتبة الخلق، وسبق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وفيه: (أن المقادير قد كتبت قبل أن يخلق الله الخلائق بخمسين ألف سنة) إذاً الخلائق أتوا بعد مرتبة الكتابة. (خيرهِ وشرهِ): أي خير القدر وشر القدر؛ لأن القدر نوعان: منه ما هو خير وهذا بين، ومنه ما هو شر وهو ظاهر.

والقدر منه ما هو خير وما هو شر إلا أن الشر لا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى وإنما يضاف إلى مفعولات الله.

تفصيل مراتب القدر:

المرتبة الأولى: العلم السابق فإن الله جل وعلا يعلم ما كان وما سيكون وما يكون وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، علم الله السابق بكل شيء بالكيليات و بالجزئيات، بجلال الأمور وبتفصيلات الأمور، هذا العلم السابق كما قال جل وعلا في آخر سورة الحج؟ أَلَمْ تَعْلَمْ (١) أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ [الحج: ٧٠]، وقال جل وعلا؟ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ

وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ؟ [الأنعام: ٥٩]، فبيّن الله جل وعلا أن علمه بالأشياء سابق، وأنه يعلم كل شيء؛ الكليات والجزئيات، الأمور الجلية وتفاصيل الأمور، هذا العلم الأول، وهذا العلم لم يزل الله جل وعلا عالما به، علمه جل وعلا بهذه الأشياء بجميع تفاصيل خلقه، علمه بها أوّل يعني ليس له بداية.

الدرجة الثانية الكتابة: أن يؤمن العبد أن الله جل وعلا كتب ما الخلق عاملون، كتب أحوال الخلق وتفصيلات ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وذلك عنده في كتاب جعله في اللوح المحفوظ، كما قال جل وعلا (وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) فأثبت أنه في كتاب وقال جل وعلا؟ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ؟ [القمر: ٥٣]، يعني قد سُطِّرَ وَكُتِبَ في اللوح المحفوظ، وقال جل وعلا؟ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ؟ [الحج: ٧٠]، بين أن كل شيء إنما هو في كتاب، وهذا قد جاء أيضا في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قدر الله مقادير الخلائق يعني بالكتابة قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)).

هاتان المرتبتان تسبقان وقوع المقدر.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن مشيئة الله جل وعلا نافذة: وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، فليس ثم شيء يحدث ويحصل في ملكوت الله جل وعلا إلا وقد

شاءه الله جل وعلا، وقد أراد الله جل وعلا كونا، سواء في ذلك طاعات المطيعين أو عصيان العاصين، سواء في ذلك إيمان المؤمنين أو كفر الكافرين، فكل شيء يحصل في ملكوت الله إنما هو بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية؛ لأن المشيئة ما تنقسم، التي تنقسم الإرادة، بإذنه ومشيئته وإرادته الكونية، ومشية الله إذا أطلقت يُعنى بها الإرادة الكونية، الإرادة تنقسم إلى إرادة كونية وإرادة شرعية، فأما المشيئة فهي مشيئة الله جل وعلا في كونه، هذه الدرجة الأولى هذه تواكب وقوع المقدر، فلا يمكن أن يعمل العبد شيء يكون مقدرًا من الله جل وعلا إلا وهذا الشيء قد شاءه الله جل وعلا.

وتفصيل ذلك من قدرة العبد ومشيئته:

هو أن العبد عنده إرادة وعنده قدرة؛ فإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقدرة التامة حصل من العبد الفعل، لكن لا يحصل منه الفعل إلا بعد أن يشاء الله جل وعلا ذلك منه.

فالفعل فعل العبد حقيقة، لكن الخالق لهذا الفعل هو الله جل وعلا. وذلك لأن الفعل من العبد لا يكون إلا بإرادة جازمة وبقدرة تامة، والإرادة والقدرة قد خلقها الله جل وعلا، الله جل وعلا خلق ما به يكون الفعل ويخلق الفعل نفسه إذا توجه إليه العبد.

المرتبة الرابعة: أن الله خالق كل شيء، أعمال العباد، أحوال العباد، السماوات، الأرض، من في السماوات ومن في الأرض، ما في السماوات وما في الأرض، الجميع

الذي خلقه هو الله جل وعلا، فإذا أراد العبد أن يعمل شيئاً فإنه لا يكون إلا إذا شاءه الله جل وعلا، وخلق الله جل وعلا ذلك الشيء، طاعات المطيعين خلقها الله جل وعلا، عصيان العاصين خلقه الله جل وعلا، إذا توجه العبد بإرادته إلى أن يفعل شيء إذا شاءه الله كونا وقع بعد خلقه له، إذا لم يشأه ولو أراد العبد لم يقع، كما قال جل وعلا؟ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [التكوير: ٢٩]، قال؟ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

حكم منكر القدر:

من أنكر القدر كله فليس من المسلمين، ولا من المؤمنين، ولا من الموحدين. وأما من أنكر بعض مراتب القدر فهو بحسب المرتبة التي أنكرها، وبحسب نوع الإنكار، فمن أنكر علم الله سبحانه وتعالى فهو كافر بإجماع السلف. يقول الشافعي: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أجابوا حُصَمَوا، وإن أنكروا كفروا.

فمن أنكر صفة العلم لله عز وجل فهو كافر. ومن أنكر شيئاً من المراتب الثلاث الباقية، فمن أنكرها وهو مكذب فليس بمسلم إجماعاً؛ لأن المسلم لا يمكن أن يكذب بخبر الله عز وجل.

قوله: { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ } البر: اسم جامع لكل عمل من أعمال الخير من العقائد والأعمال. قال ابن كثير: من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله

قوله: ودليل القدرِ قوله تعالى: { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ }: أي: إنا خلقنا كل

شيء من المخلوقات العلوية والسفلية بتقدير سابق لخلقنا له.

وذلك بكتابته في اللوح المحفوظ فهو يقع كما كتب بوقته وقدره، وجميع ما

اشتمل عليه من الصفات. قال تعالى: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا }.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق

السموات والأرض بخمسين ألف سنة".

قال ابن كثير رحمه الله: يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله

السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه

الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة

القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة - رضي الله عنهم. اهـ "تفسير ابن

كثير": (٤٥٧/٧).

المرتبة الثالثة: الإحسان رُكن واحد.

وهو: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:

١٢٨].

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي

السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الآية.

قوله: المرتبة الثالثة: الإحسان:

والمقصود به الإحسان في عبادة الله سبحانه وتعالى.

وهو لغة: مشتق من الحسن ويطلق على الإتقان والإجادة، فإذا أتقن الشيء فهو محسن فيه، وإذا أجاد الشيء فهو محسن فيه.

واصطلاحاً: فهو إتقان الأعمال الظاهرة والباطنة، أي إتقان الإسلام والإيمان. فهو الإحسان الذي يقترن بالإيمان والإسلام، وهو أعلى مراتب الدين فإذا أتقن الإنسان وأحسن في إسلامه وأتقن كذلك إيمانه فإنه يكون من المحسنين.

قوله: "ركن واحد وهو أن تعبد الله": أي: تقوم بعبادة ربك من عبادات ظاهرة أو باطنة.

قوله: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك:

فهذا الركن له مرتبتان:

(أ) مرتبة الاستحضار: وهي أن تعبد الله كأنك تراه فتستحضر في عبادتك أنك بين يدي الله. وهذه أعلى وأجل المرتبتين ولهذا قدمها.

تستحضر في نفسك وفي قلبك وأنت تتعبد لله جل وعلا كأنك قائم بين يدي ربك جل وعلا.

ودليلها الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:

١٢٨].

(أي متقنون) الأعمال والاعتقادات.

(ب) مرتبة الاطلاع: وهي أن تستحضر في قلبك أن الله مطلع عليك، ويراقبك وهذا يورث أن تحسن العبادة. وأشار إليها بقوله: " فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

ودليلها الآيتان الأخيرتان:

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

أي يطلع عليك ويراقبك وهذا يورث الإحسان في الإسلام والإيمان.
قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: مشاهدين لكم مراقبين لأعمالكم سامعين لأقوالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون في ذلك العمل.
والمرتبة الثانية داخلة في الأولى ولا شك؛ لأن الله مطلع سواء استحضر العبد أنه بين يدي الله أو لا، وإنما زاد في الدرجة الأولى أن الله تعالى مطلع عليك بسمعه وعلمه وبصره ومع ذلك أنت مستحضر في قلبك كأنك قائم بين يدي الله جل وعلا.

فإذا انتفى استحضار قلبك بقي الشيء الآخر وهو أن الله مطلع عليك.

والدرجة الأولى هي العظمى؛ لأن الدرجة الثانية درجة عامة؛ وذلك لأن الله جل وعلا يرى جميع الخلق، لكن الدرجة الأولى لا تكون إلا لصاحب الإحسان الذي يعبد ربه كأنه يراه.

والدليل من السنة:

حديث جبرائيل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال:

بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. قال: ((أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً))، فقال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان قال: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره))، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ((ما المسئول عنها بأعلم من السائل))، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: ((أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان))، قال: فمضى، فلبثنا ملياً، فقال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)).

قوله: "والدليل من السنة حديث جبريل المشهور": هذا دليل على ما تقدم من

الإسلام والإيمان والإحسان.

وفائدة ذكر هذا الحديث بطوله هنا؛ أنَّ المصنف حين ذكر مراتب الدين، وفرق بينها فكان الإسلام يدل على الأعمال الظاهرة والإيمان على الأعمال الباطنة والإحسان على الإحسان في كليهما وهو كمال الظاهر والباطن؛ كان لا بد لهذا لتفريق من دليل خاص يدل عليه، فأتى بحديث جبريل هذا الذي ذكرت فيه هذه المراتب الثلاث.

ثم بين النبي ﷺ في آخره على أنَّ هذا الحديث اشتمل على شرح الدين كله بقوله: ((هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم))، فجعل ذلك كُله ديناً. ومعنى ((يعلمكم أمر دينكم)): أي: قواعد دينكم، أو كَلِّيات دينكم.

قال القاضي عياض عن هذا الحديث: وهذا الحديث قد اشتمل على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة؛ من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفُّظ من آفات الأعمال، حتى إنَّ علوم الشريعة كُلَّها راجعةٌ إليه، ومتشعبةٌ منه.

وعند البخاري: قَالَ عِكْرِمَةُ: جَبْرَ وَمِيكَ وَسَرَّافٍ: عَبْدٌ، إِيْلَ: اللَّهُ، أَيِ مَعْنَى جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ عَبْدَ اللَّهِ.

قال العيني: أَيِ: مَعْنَى لَفْظِ: إِيْلَ اللَّهِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَعْنَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ: عَبْدَ اللَّهِ، قَالَهُ عِكْرِمَةُ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، وَوَصَلَهُ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمٍ عَنْهُ، قَالَ جِبْرِيلَ عَبْدَ اللَّهِ، وَمِيكَائِيلَ عَبْدَ اللَّهِ، إِيْلَ: اللَّهُ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كُلُّ اسْمٍ فِيهِ: إِيْلَ، فَهُوَ اللَّهُ، وَيُقَالُ: إِيْلَ اللَّهِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَرَوَى الطَّبْرِيُّ

من طَرِيقِ عَلِيِّ ابْنِ الْحُسَيْنِ، قَالَ: اسْمُ جَبْرِيلَ عَبْدُ اللَّهِ، وَمِيكَائِيلَ عبيدُ اللَّهِ، يَغْنِي بِالْتَّصْغِيرِ، وَإِسْرَافِيلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَكُلُّ اسْمٍ فِيهِ إِيْلٌ، فَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ. عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٨ / ٨٩).

فائدة:

جاء في جامع العلوم والحكم (٨ / ٤)
قوله في بعض الروايات: فإذا فعلت ذلك، فأنا مسلم؟ قال: ((نعم)) يدلُّ على
أَنَّ مَنْ كَمَّلَ الْإِتْيَانَ بِمَبَانِي الْإِسْلَامِ الْخَمْسِ، صَارَ مُسْلِمًا حَقًّا، مَعَ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ
بِالشَّهَادَتَيْنِ، صَارَ مُسْلِمًا حُكْمًا، فَإِذَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ((١)) بِذَلِكَ، أُلْزِمَ بِالْقِيَامِ
بِبَقِيَّةِ خِصَالِ الْإِسْلَامِ. اهـ

الأصل الثالث: معرفة نبيكم محمد ﷺ:

وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

قوله: الأصل الثالث: إنما كان معرفة النبي ﷺ أصلً ثالث وذلك لأنَّ محمدًا ﷺ هو الواسطة بيننا وبين الله تعالى، فإنَّا لا نعرف الأصل الأول الذي هو معرفة الربَّ جلَّ جلاله، ولا الأصل الثاني الذي هو دين الإسلام إلا بالواسطة بيننا وبين الله وهي معرفته ﷺ، فصارت بذلك أصلًا ثالثًا.

قوله: معرفة نبيكم محمد ﷺ: معناه العلم به ﷺ وبحاله. وفائدة هذا العلم هو أن تكون الشهادة بأنَّ محمدًا رسول الله على علم ومعرفة وذلك ليكون العبد شاهدًا بأنَّ محمدًا رسول الله شهادة بعلم ومعرفة، إذ لو قال: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله فقليل له: من محمد هذا؟ ولم يعرف، كانت شهادته مدخولة، لأن الشهادة لا تكون إلا عن علم ومعرفة. وبمعرفة هذا الأصل أيضًا يكون به الجواب بتوفيق الله على سؤال القبر الثالث.

ومعرفة هذا الأصل يتضمن أمورًا ومنها:

الأول: معرفة نسبه ﷺ.

الثاني: معرفة سنّه ومكان ولادته ومهاجره ﷺ.

الثالث: معرفة حياته النبوية ﷺ.

الخامس: بماذا أرسل ﷺ، ولماذا؟

الفرق بين هذا الأصل وركن شهادة أن محمداً رسول الله؟

أن هذا الأصل اعتقادي علمي يتعلق بالمعرفة، وأما ركن شهادة أن محمداً رسول الله فهو أصل عملي أي أنك تطيعه وتتبع أوامره، فهناك تعمل وهنا تعتقد وتعرف وفائدة هذا الأصل علمية معرفية.

وأما القدر الواجب على العبد معرفته من هذا الأصل؛ فهو ما يتم به جوابه على

سؤال الملكين ويتمثل في الأمور التالية:

أولاً: اسمه ﷺ، روى أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها أن الملكين

يسألان العبد: ((ما هذا الرجل الذي كان فيكم، فيقول: محمد رسول الله)) (١).

ثانياً: إنه عبد لله ورسول من عند الله، جاء في الصحيحين من حديث أنس

أن المؤمن يجيب فيقول: ((أشهد أنه عبد الله ورسوله)) (٢).

ويدخل في هذا معرفة نبوته بأن الله تعالى أوحى إليه بقوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] الآيات.

(١) مسند الإمام أحمد (١٣٩/٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب: الميت يسمع خفق النعال، ومسلم (٢٢٠٠/٤).

وحصلت له مرتبة الرسالة بأن أوحى إليه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢] الآيات.

ثالثاً: معرفة ما جاء به ﷺ.. روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن المؤمن يُجيب: ((محمد رسول الله جاء بالبينات من عند الله فصداً))^(١).

قال الشيخ عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله: ((ذكر المصنف رحمه الله جملة مما يعرف به النبي ﷺ وأعظمها وأعلاها معرفة ما بُعث به))^(٢) اهـ

رابعاً: معرفة الدليل على رسالته ونبوته ﷺ، ويدلُّ على ذلك حديث البراء بن عازب الطويل، ((في سؤال الملكين، فيقولان ما يدريك عن هذا الرجل؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت وصدقت)).

قوله: وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم: وهذا النسب متفق عليه ولا خلاف فيه.

قال ابن كثير في الفصول في السيرة (ص: ٨٧):

((وهذا النسب الذي سقناه إلى عدنان لا مزية فيه ولا نزاع، وهو ثابت بالتواتر والإجماع)). اهـ

قال ابن القيم في الزاد (١/ ٧١):

(١) مسند الإمام أحمد (٦/ ١٣٩).

(٢) حاشية ثلاثة الأصول ص (٧٩).

"فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وهذا لا خلاف فيه".

اهـ

و(محمد) الذي تكاملت فيه الخصال المحمودة وهو اسم مفعول من الصفة على سبيل التفاؤل أنه سيكثر حمده، وسائر أسماء أوصافه عليه الصلاة والسلام راجعة إليه.

وعبد المطلب اسمه شيبه بن هاشم، ويقال له شيبه الحمد لأنه ولد وفي رأسه شيبه، وقيل لجوده وجماع أمر قريش عليه.

ولقب بعبد المطلب لأن عمه المطلب جاء به إلى مكة رديفه وهو بهيئة بذة وقد تغير لونه من السفر وصار أسود فظنوا أنه عبد، فكان يسأل عنه فيقول: هو عبدي حياء من أن يقول: ابن أخي فقالوا: هذا عبد المطلب، نسبة أو إضافة إليه،

وعاش مائة وأربعين سنة (ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة)، وقيل له هاشم لأنه هشم الثريد بمكة لقومه في زمن المجاعة، وهاشم اسمه عمرو بن عبد مناف. (١)

فائدة:

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٨٣ / ٦)

وجود عبد المطلب في تسمية النبي صلى الله عليه وسلم ليس حجة في التعبد
لغير الله، وقد حُكي الإجماع على تحريم كل اسم معبد لغير الله^(١)

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب))^(٢)
فالصحيح أنه من باب الإخبار وحكاية نسب مَضَى.

قال العثيمين في شرح رياض الصالحين (٦/ ٥٩٢):

قال ذلك في غزوة حنين لأن عبد المطلب أشهر من أبيه عبد الله وهو عند
قريش في المكانة العليا فلهذا قال أنا ابن عبد المطلب. اهـ

قوله: وهاشم من قريش:

وهاشم من قريش يعني من قبيلة قريش، وقريش في الأصل هو النضر بن كنانة
يعني اسم رجل

صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٢)

عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ،
وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)).

(١) ((مراتب الإجماع)) لابن حزم ((ص ١٥٤))

(٢) متفق عليه من حديث البراء.

قريش: هو النضر بن كنانة، لما ورد عن الأشعث بن قيس - رضي الله عنه - قال: أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وفد لا يرون أني أفضلهم. فقلت: يا رسول الله، إننا نزعم أنا منكم، قال: "نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا نتنفي من أبينا...".

والمقصود بهذا: أن النبي ﷺ بعث في أكرم العرب نسباً، وهو خيرها وأكرمها.

قال ابن كثير في الفصول في السيرة (ص: ٩٠):

ولم يولد من بني اسماعيل أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم، بل لم يولد من بني آدم أحد ولا يولد إلى قيام الساعة أعظم منه صلى الله عليه وسلم، فقد صح أنه قال: ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه من الأنبياء تحت لوائي^(١))). اهـ

قوله: وقريش من العرب:

المراد بالعرب هنا المستعربة؛ فإن العرب قسمان: عاربة ومستعربة؛ فالعاربة قحطان، والمستعربة عدنان، وهم أفضل من العرب العاربة؛ لأن منهم أفضل الخلق صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: "إن الله اصطفى بني إسماعيل من العرب، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى

(١) سنن الترمذي (٥ / ٣٠٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ

من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا خيار من خيار". رواه مسلم وغيره.

ولما سأل هرقل أبا سفيان رضي الله عنه عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: وهكذا الرسل تبعث في أنساب قومها؛ يعني: في أكرمها أحسابًا. خرّجه البخاري.

فائدة:

توارد الأخباريون والمؤرخون والنسابون على تقسيم العرب من حيث القَدَم إلى طبقات ثلاثة:

- ١- العرب البائدة: فهم مثل أقوام عاد، وثمود، وجديس، وعيل، وجُرهم، أطلق عليهم اسم "البائدة" لقدمهم النسبي، ولاندثارهم قبل الإسلام.
- ٢- العرب العاربة وهم القحطانيون، أبناء قحطان بن عابر.
- ٣- العرب المستعربة أو المتعربة، وهم العدنانيون، وهم ينتسبون إلى عدنان من نسل سيدنا إسماعيل عليه السلام، الذي تزوج من ريلة الجرمية، فتعلم منهم العربية، ثم ألهمه الله العربية الفصيحة المبيّنة فنطق بها، فكانت عربيته أفصح من عربية يعرب بن قحطان.

يشهد لذلك ما ثبت أن النبي ﷺ قال: ((أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ

إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةً)).^(١)

قال الحافظ في الفتح: قوله ((المُبِينَةِ)): أفاد أن أوليته في ذلك بحسب الزيادة والبيان لا الأولية المطلقة، فيكون بعد تعلّمه العربية من جرّهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبيّنة فنطق بها، ويشهد له ما حُكي أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم، ويُحتمل كون الأوليّة مقيّدة بإسماعيل بالنسبة إلى إخوته من ولد إبراهيم^(٢) اهـ

ولهذا قال صاحب المصباح: ((العرب العاربة هم الذين تكلموا بلسان يعرب بن قحطان وهو اللسان القديم، والعرب المستعربة هم الذين تكلموا بلسان إسماعيل بن إبراهيم وهي لغات الحجاز وما والاها)). اهـ^(٣)

فائدة:

الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم، روميهم وفرسيهم، وغيرهم.

(١) (صحيح) رواه الشيرازي في الألقاب عن علي، ورواه الطبراني في الأوائل، والديلمي عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٨١).

(٢) فتح الباري (٤٠٣/٦).

(٣) المصباح المنير (٤٠٠/٢)، المكتبة العلمية، بيروت.

وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفضل بني هاشم؛ فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً. وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم لمجرد كون النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور. (١)

وسبب هذا الفضل - والله أعلم - ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع وإما بالعمل الصالح، والعلم له مبدأ، وهو: قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام، وهو: قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة، والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني جمعاً ورفقاً. (٢)

فائدة:

لفظ (الأعراب) هو في الأصل: اسم لبادية العرب، فإن كل أمة لها حاضرة وبادية، فبادية العرب الأعراب، ويقال: إن بادية الروم الأرمن ونحوهم، وبادية الفرس الأكراد ونحوهم، وبادية الترك التتار.

فائدة:

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ((١ / ٣٧٤ - ٣٧٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ((١ / ٣٩٩ - ٤٠٠).

العرب لغة: الصحاري والقفار، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات.
وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب. كما أطلق على قوم
قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطناً لهم.

وله من العمر ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

نُبِّئَ بـ((اقرأ))، وأرسل بـ((المدثر)).

قوله: وله من العمر ثلاث وستون سنة: أي من يوم أن وُلِدَ إلا أن مات وهي مدة عمرة.

قال ابن كثير في الفصول في السيرة (ص: ٩٢): الصحيح أنه ولد عام الفيل، وقد حكاه إبراهيم بن المنذر الحزامي شيخ البخاري، وخليفة بن خياط وغيرها إجماعاً. اهـ

وقال الحافظ ابن عساكر (١ / ٤٠١) عن ابن المنذر أنه قال: "لا يشك أحد من علمائنا: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وبُعث على رأس أربعين سنة من الفيل".

قوله: وله من العمر ثلاث وستون سنة: هذا قول جمهور أهل العلم وهو الصحيح.

فقد روى مسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ((تُوِّفِيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً)).

وفيه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: ((قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ)).

وبنحوه عن معاوية وعبد الله بن عتبة وكلها في مسلم.

قَالَ الْبُخَارِيُّ وَهَذَا عِنْدِي أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ رَبِيعَةَ عَنْ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ تُوِّفِيَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً.

قال ابن عبد البر في التمهيد (٣ / ١٠): إِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ وَابْنَ عَبَّاسٍ عَلَى اخْتِلَافٍ عَنْهُ كُلُّهُمْ يَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوِّفِيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَلَمْ يَخْتَلَفْ عَنْ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ فِي ذَلِكَ. اهـ وما ورد عند البخاري وغيره عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا.

قال الملا القاري في شرح الشمايل (٢ / ٢٠٠):

فِي قَدْرِ عُمُرِهِ ﷺ ثَلَاثُ رَوَايَاتٍ: إِحْدَاهُمَا أَنَّهُ تُوِّفِيَ وَهُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً، وَالثَّانِيَةُ خَمْسُ وَسِتُّونَ، وَالثَّلَاثَةُ ثَلَاثُ وَسِتُّونَ، وَهِيَ أَصَحُّهَا وَأَشْهَرُهَا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ رَوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ وَمُسْلِمٍ مِنْ رَوَايَةِ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُعَاوِيَةَ أَيضًا، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ أَصَحَّهَا ثَلَاثُ وَسِتُّونَ وَتَأَوَّلُوا بَاقِيَ الرِّوَايَاتِ عَلَيْهَا؛ فَرَوَايَةُ سِتُّونَ مَحْمُولَةٌ عَلَى أَنَّ الرَّاويَ اقْتَصَرَ فِيهَا عَلَى الْعُقُودِ وَتَرَكَ الْكُسُورَ، وَرَوَايَةُ الْخَمْسِ مُتَأَوَّلَةٌ أَيضًا بِإِذْخَالِ سَنَتِي الْوِلَادَةِ وَالْوَفَاةِ أَوْ حَصَلَ فِيهَا اشْتِبَاهٌ، وَقَدْ أَنْكَرَ عُرُوزَةُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ خَمْسُ وَسِتُّونَ، وَنَسَبَهُ إِلَى الْغَلَطِ، وَقَالَ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ أَوَّلَ النُّبُوَّةِ، وَلَا كَثُرَتْ صُحْبَتُهُ بِخِلَافِ الْبَاقِينَ. اهـ

وهو ما ذكره النووي في شرح مسلم (١٥ / ٩٩).

قوله: منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً.

قال النووي في شرح مسلم (١٥ / ٩٩):

"وَاتَّفَقُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَبِمَكَّةَ قَبْلَ النَّبَوَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي قَدْرِ إِقَامَتِهِ بِمَكَّةَ بَعْدَ النَّبَوَّةِ وَقَبْلَ الْهَجْرَةِ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا ثَلَاثَ عَشْرَةٍ فَيَكُونُ عُمُرُهُ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُ بُعِثَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً هُوَ الصَّوَابُ الْمَشْهُورُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ". اهـ

قوله: قبل النبوة: النبوة: من النبأ وهو الخبر، لأنه يخبر عن الله، وقيل: من النبوة، وهو الارتفاع، لارتفاع رتبته، وإنما كان كذلك لأنه ارتفع على غيره، وكأنه صار في نبوة من المكان، يعني في مرتفع منه، وسبب هذا الارتفاع الإنباء.
قوله نُبِيَِّ بَاقِرًا.

وقوله: (بِاقِرًا): أي صار نبياً حين نزل عليه قوله تعالى: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } وهذا نزل عليه في رمضان وهو في غار حراء، كما في حديث عائشة في الصحيحين.

قوله: (وأرسل بالمدثر): أي: بعث لأن الإرسال معناه البعث والتوجيه،

بالمدثر: أي بصدر سورة المدثر.

لما في الصحيحين عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: "بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ،

فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ} [المدثر: ٢] إِلَى قَوْلِهِ {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: ٥].

وقول المصنف: (نبي باقرأ وأرسل بالمدثر): دليل على أن هناك فرقاً بين النبي والرسول، ومن الأدلة على هذا قول الله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَمَّتْ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ }، والعطف يقتضي المغايرة.

قوله: وبلده مكة:

أي ولد بها ونشأ فيها إلا ما كان منه وهو مع مرضعته السعدية في البرية، ثم رجع إليها في حضانه جده، ثم عمه، وأوحي إليه بها، وبقي بها ثلاث عشرة سنة بعد أن أوحي إليه.

قوله: وهاجر إلى المدينة: وذلك حين قررت قريش قتل النبي ﷺ فأوحي إليه ربه سبحانه بما يكاد به، وأذن له الله في الخروج من مكة إلى المدينة، فبقي فيها عشر سنين، ثم توفي فيها في ربيع الأول سنة إحدى عشر بعد الهجرة.

قال ابن القيم في زاد المعاد (١/١٠١): ثم أذن الله لرسوله ﷺ في الهجرة، فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول، وقيل في صفر، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة". اهـ

بعثه الله بالندارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد.

والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد..

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظمه بالتوحيد.

﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر أعمالك عن الشرك.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرجز: الأصنام، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها.

قوله: بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنَّذَارَةِ عَنِ الشَّرْكِ: أي: بالإنذار عن الشرك الأكبر والأصغر،

الدقيق والجليل، الظاهر والخفي؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم حذر من الشرك كله، وحذر منه ومن أسبابه المفضية والموصلة إليه، وتميزت هذه الشريعة بأنها سدت كل الطرق الموصلة إلى الشرك.

والإنذار: هو الإعلام بالشيء الذي يُحذر منه.

قال ابن القيم رحمه الله: الإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه^(١). اهـ

قوله: ويدعو إلى التوحيد: أي: يدعو الناس إلى عبادة الله وحده.

وقدم النذارة عن الشرك على الدعوة إلى التوحيد، لأن هذا هو مدلول لا إله إلا

الله، النفي والإثبات.

(١) طريق المحجرتين ص(٦٢٢).

ومن القواعد المقررة أن التَّخْلِيَةَ تسبق التَّحْلِيَةَ، فالإنذار عن الشرك هذا فيه تخلية، والدعوة إلى التوحيد تخلية.

قوله: وَالِدَلِيلُ: أي على أنه بعث بالإنذار عن الشرك والدعوة إلى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾: أصلها المتدثر أدغمت التاء في الدال لتقاربهما.

والمتدثر المتغطي بثيابه، المتغشي بها من الرعب، الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي،

قوله: {قُمْ فَأَنْذِرْ}: قم من دثارك فأنذرهم وخوفهم وحذرهم من عذاب الله

إن لم يؤمنوا ويحيبوا دعوتك، وادعهم إلى توحيد الله سبحانه وإفراده بالعبادة. وبهذه الآيات حصل له الإرسال ﷺ.

قوله: يُنذِرُ عَنِ الشَّرْكِ: أي عما يكون شركاً، وما يكون سبباً موصلاً إلى الشرك،

وما ينقص التوحيد. فكل ذنبٍ ومعصيةٍ فإنه من نواقص التوحيد، ولهذا نهى عنها الله وحذر منها النبي ﷺ.

قوله: وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ: أي ببيانه وما يجب لله عز وجل منه، وأسباب تحقيقه

وما يوصل إليه.

قوله: ﴿وَرَبِّكَ فَكْبَرٌ﴾:

التكبير جاء في القرآن وله خمسة موارد:

١ - الله أكبر في ربوبيته، أي اعتقاد أنه أكبر من كل شيء في ربوبيته، في ملكه في

تصريفه لأمره في خلقه في رزقه في إحيائه في إِمَاتَتِهِ وفي كل معاني الربوبية.

٢- الله أكبر من كل شيء في استحقاقه الإلهية والعبادة وحده دونها سواء.

٣- الله أكبر في أسمائه وصفاته، لما فيها من الحسن، والبهاء، والعظمة،

والجلال، والجمال ونحو ذلك.

٤- الله أكبر في قضائه وقدره الكوني، باعتقاد أن قضاءه وقدره له فيه الحكمة

البالغة.

٥- الله أكبر في شرعه وأمره، أي اعتقاد الله جل وعلا أكبر فيما أمر به ونهى،

وفما أنزله من هذا القرآن العظيم، أكبر وأعظم من كل ما يشرعه العباد.

فقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تدخل فيها هذه الخمسة، أي كبر الله ربوبيته، وألوهيته،

وأسمائه وصفاته، وقضاؤه الكوني، وشرعه وأمره.. ولأجل ذلك صارت هذه

الكلمة من شعارات المسلمين.

فقوله: **عَظَّمَهُ بالتوحيد**: أي عظم الله في كل هذه الأمور الخمسة.

﴿وَيَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فَطَهِّرْ﴾ أي: **طَهَّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشَّرِكِ**:

فسَّر الثوب بالأعمال وهو أحد التفاسير الواردة عن السلف، وبه قال ابن

القيم.

فالأعمال تسمى الثياب، قال الله تعالى: {وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ} [سورة

الأعراف: ٢٦]

فسمى التقوى لباسا.

فقال: قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قول قتادة ومجاهد: ((نفسك فطهر من الذنب))، فكُنَى عن النفس بالثوب، وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير.

ثم قال:

((ولا ريب أن تطهيرها - أي الثياب - من النجاسات وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به؛ إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأنَّ نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن، ولذلك أمر القائم بين يدي الله عزَّ وجل بإزالتها والبُعد عنها.. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة، ويؤثِّر كلُّ منهما في الآخر، ولهذا نُهي عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع))^(١) اهـ

والمعنى الثاني: أن المراد بها الثياب الملبوسة. أمره الله بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات. وهذا من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة. واختار ذلك ابن جرير الطبري، والشوكاني؛ لأن ذلك هو المعنى اللغوي للكلمة.

قال ابن كثير: "وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه". اهـ^(٢)

(١) مدارج السالكين (٢/٢١).

(٢) "تفسير ابن كثير" ٢٨٩/٨.

قوله: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ): الرّجز: اسم عام لما يعبد من دون الله، قد يكون صنماً، وقد يكون وثناً، قال ها هنا (الرجز الأصنام) يعني قوله (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) أي الأصنام أترك، ويلزم من ذلك أن يترك أهلها ويتبرأ منها ومن أهلها.

ومن بديع هذه الآيات:

أن الله سبحانه وتعالى افتتح الأوامر فيها بالندارة، فأول آية أمر النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالإنذار، وحصلت له بها الرسالة، واختتمت بالأمر بالصبر، وهذا فيه إشعار له صلى الله عليه وسلم أنه لن يتحقق له القيام بالندارة والرسالة إلا بتحقيق الصبر، ولذلك اختتم الأوامر بقوله: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}.

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد.
وبعد العشر عُرج به إلى السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصُلِّي في مكة
ثلاث سنين.

قوله: أخذ على هذا: أي على ما أمره الله في الآيات السابقة من بيان الشرك،
والإنذار عنه، والتحذير منه، وبيان التوحيد، والدعوة إليه.

قوله: عشر سنين: أي من بداية مبعثه ﷺ.

يدعو إلى التوحيد: وذلك لأن المقصود الأعظم من بعثة النبي وإرسال
المرسلين وإنزال الكتب هو الإنذار من الشرك والنهي عنه، والدعوة إلى توحيد الله
تعالى وإفراده بالعبادة.

وهذا ما دعا إليه جميع الرسل، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].
وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}
[النحل: من الآية ٣٦]

وقال عن نوح وهود وصالح وشعيب، أول شيء بدأوا به قومهم أن قالوا:
{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: من الآية ٥٩].

وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، أول شيء دعاهم إليه أن قال: "قولوا: لا
إله إلا الله"، فقالوا {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِهَاءً وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: ٥].

فالتوحيد من أوجب الواجبات وهو أساس العبادات التي ينبني عليها، وهو

الأصل وبقية شرائع الدين فرع عنه، ولهذا لم تفرض الصلاة التي هي عماد الدين وبقية الشرائع إلا بعد إرساء دعائم التوحيد وبنیان العقيدة.

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله".

قوله: وبعد العشر عرج به إلى السماء: أي صعد به إلى السماء.

والمعراج هو السلم الذي عرج به رسول الله ﷺ من الأرض إلى السماء. وقد ثبت المعراج بالقرآن كما في أوائل سورة النجم إلى قوله سبحانه: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}.

وقد أسري برسول الله ﷺ بجسده وروحه، يقظة لا مناماً، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكباً البراق في صحبه جبريل عليه السلام، فنزل هناك، وأم بالأنبياء ببيت المقدس فصلى بهم.

ثم عرج به تلك الليلة من هناك إلى السماء الدنيا، إلى أن وصل السماء السابعة.

ورأى عندها جبريل على الصورة التي خلقه الله عليه، واقترب من ربه جل وعلا، وكلمه ربه بدون واسطة، فأوحى إليه ما أوحى، ورأى الجنة النار في تلك الليلة، ثم رجع إلى فراشه في ليلته، ولأجل كل ما حصل من العجائب قال الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١].

قوله: وفُرضت عليه الصَّلواتُ الخمسُ: أي ليلة المعراج، وكان أول فرضها خمسين صلاةً ولم يزل يتردد بين موسى وربه حتى وضعها إلى خمسٍ، فهي خمسٌ، وهنَّ خمسون، الحسنة بعشر أمثالها.

كما في الصحيحين عن أنس، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((فَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً))، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ لِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَرَاغِ رَّبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاغْتُ رَبِّي، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ: رَاجِعِ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَرَاغْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعِ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي".

قوله: وصلّى في مكة ثلاث سنين: أي بعد أن فرضت عليه، وعلى هذا يكون فرض الصلاة قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح، وأول ما فرضت كانت ركعتين ركعتين في الرباعية والمغرب ثلاث ولما هاجر زيدت في الرباعية، فقد روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: ((فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَرَضَتْ أَرْبَعًا، وَتُرِكَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ عَلَى الْأُولَى)).

قال الحافظ في فتح الباري (١/ ٤٦٤): "والذي يظهر لي وبه تجتمع الأدلة السابقة أن الصلوات فرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح كما روى بن خزيمة وابن حبان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة قَالَتْ: ((فُرِضَتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَالْحَضَرِ- رَكَعَتَيْنِ، فَلَمَّا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ- رَكَعَتَانِ رَكَعَتَانِ، وَتُرِكَتْ صَلَاةُ الْفَجْرِ لِطُولِ الْقِرَاءَةِ، وَصَلَاةُ الْمَغْرِبِ لِأَنَّهَا وَتُرِ النَّهَارِ)) (١)". اهـ

وصلّى الصلوات الخمس على هذا النحو الذي نصليه، قد حُدّت صفاتها،
أركانها، واجباتها، وحُدّت أوقات الصلوات كلها، جاء إلى النبي جبريل وبين له
أوقات الصلوات، بعد ثلاث سنين من فرض الصلاة هاجر النبي عليه الصلاة
والسلام إلى المدينة.

وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة.

والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة: والدليل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا النساء: ٩٧. ٩٩].

وقوله تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّايَ فَاعْبُدُونِ [العنكبوت: ٥٦].

قال البغوي رحمه الله: (سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان).

والدليل على الهجرة من السنة قوله: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

وبعدها: أي: بعد الثلاث عشرة سنة من بعثته.

أمر بالهجرة إلى المدينة: من مكة إلى المدينة بمفارقة المشركين وأوطانهم، بحيث يتمكن من إظهار دينه، والدعوة إلى الله في غير بلادهم.

والدليل على أن الهجرة بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة ما رواه البخاري حديث ابن عباس قال: "بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين".

قوله: والمهجرة فريضة على هذه الأمة:

المهجرة في اللغة: الترك. وفي الشرع: ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه ويرضاه.

وفي الاصطلاح ما عرفها به المصنف فقال: المهجرة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

سبب مشروعية الهجرة:

أن المؤمن يجب عليه أن يُظهر دينه، معتزاً بذلك، مبيناً للناس، مخبراً أنه يشهد شهادة الحق.

قوله: من بلد الشرك إلى بلد الإسلام:

بلد الشرك: هو الذي تقام فيه شعائر الكفر، ولا تقام فيه شعائر الإسلام على وجه عام.

وبلد الإسلام: هو البلد الذي تظهر فيه الشعائر والأحكام على وجه عام. وأهم الشعائر: هي الصلاة، فإذا كانت الصلاة مظهرًا من مظاهر البلد فهو بلد إسلامي. أما إذا كانت الصلاة يقيمها أفراد أو جماعات وهي ليست من مظاهر البلد فلا يحكم على البلد بأنه بلد إسلامي.

قوله: وهي باقية: أي أن الهجرة من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة باتفاق أهل العلم.

وأما قول النبي ﷺ في حديث عائشة الذي في الصحيحين: "لا هجرة بعد

الفتح".

فالمقصود به لا هجرة من مكة بعد فتحها؛ لأنها صارت دار إسلام. وكل بلد يفتح ويكون بلد إسلام فإن الهجرة لا تجب منه.

وقوله: إلى أن تقوم الساعة: أي إلى قرب قيام الساعة مادام أن هناك مسلمين لأن من المعلوم أن الساعة تقوم على الكفار
قوله: والدليل أي على وجوب الهجرة.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ... الآيات

استدل المصنف بهذه الآيات على وجوب الهجرة، وقد ذكر أهل العلم أصناف الناس مع الهجرة على أحوال.

فقال ابن قدامة في المغني: النَّاسُ فِي الْهِجْرَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ:

الأول: مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ، وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا، وَلَا يُمَكِّنُهُ إِظْهَارُ دِينِهِ،
لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧]. وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ يَدُلُّ عَلَى
الْوُجُوبِ.

وَلِأَنَّ الْقِيَامَ بِوَاجِبٍ دِينِهِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَالْهِجْرَةُ مِنْ ضَرُورَةٍ
الْوَاجِبِ وَتَتِمَّتِهِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

الثاني: مَنْ لَا هِجْرَةَ عَلَيْهِ: وَهُوَ مَنْ يَعْجِزُ عَنْهَا، إِمَّا لِمَرَضٍ، أَوْ لِكِرَاهٍ عَلَى الْإِقَامَةِ،
أَوْ ضَعْفٍ؛ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَشِبْهِهِمْ، فَهَذَا لَا هِجْرَةَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٨] {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٩٩].

وَالثَّالِثُ: مَنْ تُسْتَحَبُّ لَهُ، وَلَا تَحِبُّ عَلَيْهِ: وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ يَتِمَكَّنُ مِنْ إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، فَتُسْتَحَبُّ لَهُ، لِيَتِمَكَّنَ مِنْ جِهَادِهِمْ، وَتَكْثِيرِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَعُونَتِهِمْ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ تَكْثِيرِ الْكُفَّارِ، وَمُحَالِطَتِهِمْ، وَرُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ بَيْنَهُمْ. وَلَا تَحِبُّ عَلَيْهِ؛ لِإِمْكَانِ إِقَامَةِ وَاجِبِ دِينِهِ بِدُونِ الْهَجْرَةِ. وَقَدْ كَانَ الْعَبَّاسُ عَمُّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُقِيمًا بِمَكَّةَ مَعَ إِسْلَامِهِ. (١)

قوله: وقوله تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}.

قال البغوي رحمه الله: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان. اهـ

هذا دليل على أن الذي يترك الهجرة ليس بكافر؛ لأن الله تعالى ناداهم باسم الإيمان.

قال ابن كثير على هذه الآية: هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع. اهـ (٢)

قوله: والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ: " لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها".

(١) المغني لابن قدامة (٩/ ٢٩٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٤١).

معنى انقطاع التوبة: عدم قبولها؛ وذلك إذا طلعت الشمس من مغربها.
قال تعالى: { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ... }

فائدة:

مناسبة ذكر المصنف للهجرة مع الأصول الثلاثة لبيان أن الهجرة من أبرز تكاليف الولاء والبراء.

فلما استقر بالمدينة أُمرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، مِثْلُ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ. أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سَنِينَ، وَبَعْدَهَا تَوَفَّى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ.

قوله: فلما استقر بالمدينة: أي بعد أن هاجر إليها وانتشر - التوحيد، ودان به أولئك، وكثر أتباعه، وأقاموا الصلاة التي فرضت عليهم قبل الهجرة بثلاث سنوات.

قوله: أمر ببقية شرائع الإسلام: أي التي تعبد الله بها خلقه.

قوله: مثل الزكاة: أصل الزكاة فرضت في مكة على الصحيح، إلا أنها لم تكن مقدرة بأنصبه معينة إنما كان مرجعها إلى ذاتية الشخص. فقد يجود بالكثير وقد يجود بالقليل، وأما تبين أحكامها وأنصبتها ومقاديرها وأهلها وأصحابها فهذا شرع في المدينة، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة.

قوله: والصوم، والحج: فرض الصوم في السنة الثانية من الهجرة.

قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/٢):

كان فرضه - أي الصيام - في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضان. اهـ

والحج فرض على أرجح الأقوال في السنة التاسعة من الهجرة.

قال ابن القيم في زاد المعاد (١٠١/٢):

ولما نزل فرض الحج، بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير، فإن فرض الحج تأخر إلى سنة تسع أو عشر. اهـ

قوله: والجهاد: المراد هنا: قتال الكفار خاصة.

وفرض الجهاد لما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وقامت الدولة الإسلامية أمروا بالجهاد قال تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) } وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ }.

قوله: والأذان: شرع في السنة الأولى من الهجرة على القول الراجح.
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام.
قوله: أخذ على هذا عشر سنين: أي مكث في المدينة عليه الصلاة والسلام عشر سنين يدعو إلى التوحيد وإلى أمور الإسلام الظاهرة.

ولم تنقطع دعوته إلى التوحيد وتحذيره من الشرك بالله عز وجل؛ بل كان هذا أساس دعوته ﷺ إلى آخر حياته، وحتى وهو على فراش الموت.
ففي الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: ((لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا)).

قوله: وبعدها توفي صلوات الله وسلامه عليه: أي توفي وفاة حقيقية، وهذا أمر مجمع عليه، ودلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة.

قال ابن كثير في الفصول في السيرة (ص: ٢٢٠): وقبض صلى الله عليه وسلم ضحى يوم الإثنين من ربيع الأول، فالمشهور أنه الثاني عشر منه. اهـ
قال العلامة الفوزان في شرح ثلاثة الأصول (ص: ٢٧٥):

قد أجمعت الأمة على وفاته صلى الله عليه وسلم لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ما مات، وينفون الموت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا كلام ساقط كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي بين أصحابه وغسل وكفن وصلي عليه ودفن عليه الصلاة والسلام.

هذا بإجماع أهل السنة والجماعة ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون على الرسول صلى الله عليه وسلم ويستغيثون به من دون الله ويقولون: هو حي. اهـ

قوله: ودينه باقٍ: أي أن الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لنا باقٍ إلى أن تقوم الساعة.

وبقاء الدين معناه شيئان:

الأول: فهو حفظ أصله، وهو القرآن فلا يطرأ عليها تحريف ولا تغيير حتى تقوم الساعة، وهكذا سنة النبي ﷺ يقيض لها ربنا من يبين صحيحها من ضعيفها وهذا من حفظ الله لها.

الثاني: هو بقاء الإسلام وبقاء من يستمسك به وهي الطائفة الناجية أو الفرقة الناجية التي تستمسك بهذا الدين وإنما يبقى الدين ويبقى المسلمون حتى تقوم الساعة.

وقيام الساعة على المؤمنين الموحدين بمجيء ريح طيبة تقبض أرواحهم من تحت آباطهم كما جاء في الصحيح.

وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرهما منه، والخير الذي دلهما عليه التوحيد وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرهما عنه الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه.

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس والدليل قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) [الأعراف: ١٥٨].
وكمل الله به الدين، والدليل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) [المائدة: ٣].
والدليل عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) [الزمر: ٣٠، ٣١].

قوله: وهذا دينه: أي الذي ترك أمته عليه، وتكفل الله بحفظه، توارثه أهل العلم والدين خلفاً عن سلف.

قوله: لا خير إلا دل الأمة عليه ولا شر إلا حذرهما منه:

دل على ذلك ما جاء عن ابن مسعود، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ، إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٌ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ، إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ)).
الألباني في الترغيب

فهذا الحديث النبوي الشريف فيه التصريح الجلي الواضح بأن كل ما يقرب إلى الجنة قد بينه لنا رسول الله ﷺ وأن كل ما يبعد عن النار إلا وقد بينه لنا رسول الله ﷺ فأبي إحداه أو ابتداء إنما هو استدراك على الشريعة، ولهذا حذر ﷺ من البدع والإحداث في الدين كما في حديث عائشة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)).

وقال عبد الله بن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتهم وكل بدعة ضلالة.

قوله: والخير الذي دلها عليه التوحيد: وهو ما بعث ﷺ لأجله وهو أصل كل خير وأعظمه.

قوله: وجميع ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قوله: والشر الذي حذرنا عنه الشرك: وهو ما أنذر النبي ﷺ الناس منه، وهو أعظم الذنوب عند الله، ويحبط جميع الأعمال، وصاحبه مخلد في النار، والمراد بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

قوله: وجميع ما يكره الله ويأباه: من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قوله: "بعثه الله إلى الناس كافة وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}."

هذه الآية دليل على عموم رسالة النبي ﷺ؛ لأن الخطاب فيها للناس وهو لفظ شامل للعرب والعجم.

وفي حديث جابر في الصحيحين: "وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً".

في رواية مسلم "وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ"، فقيل: المراد بالأحمر العجم وبالأسود العرب وقيل الأحمر الإنس والأسود الجن، وأصرح الروايات في ذلك وأشملها رواية أبي هريرة عند مسلم: "وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً".

قوله: وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس:

وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)).

قوله: وكمل الله به الدين: أي أنه ﷺ ما مات إلا وقد اكمل الله به الدين، فهو دين كامل شامل لا يحتاج إلى تكميل، ومن زعم أن هذا الدين ناقص، وأنه يحتاج

إلى تكميل فقد اتهم نبينا الكريم ﷺ بالخيانة.

قال الإمام مالك: "مَنْ ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة؛ لأن الله يقول: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً". الاعتصام للشاطبي (٢٨/١).

وفي حديث العرباض قال النبي ﷺ: "لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ" رواه أحمد وابن ماجه وصححه الألباني.

فقد تركنا نبينا ﷺ على طريقة بيضاء في غاية الوضوح وفي غاية الجلاء، ليس فيها خفاء وليس فيها غموض، وإنما هي واضحة جلية، فمن أخذ بها سلم ومن أعرض عنها خاب وخسر.

قوله: والدليل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (المائدة: ٣).

فقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} أي: أنه بهذا الدين، وبهذا المنهج الشامل الكامل تمت نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة. وقوله سبحانه: {وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} هذا حث من الله سبحانه وتعالى للتمسك بهذا الدين والحرص على الاستقامة عليه.

قوله: والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) [الزمر: ٣٠، ٣١].

فيه رد على من زعم أنه عليه الصلاة والسلام حي لم يموت، وأنه يحضر، روحه تحضر، وهو يحضر، وينتقل، ونحو ذلك، فهو لاء يكونون مكذبين للقرآن، الذي أخبر أن النبي ﷺ سيموت موتاً حقيقياً فقال سبحانه: {إِنَّكَ مَيِّتٌ}: أي: إنك يا محمد ستموت وتنقل من هذه الدار لا محالة.

وقد مات وغُسل وكُفِّن وصُلي عليه ودُفن ﷺ بالمدينة سنة ١١هـ بالاتفاق.

وعند البخاري من حديث عائشة: أنه لما مات رسول الله ﷺ قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ.

وقوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}، أي: سيموتون. وينقلون من هذه الدار لا محالة كما قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) [طه: ٥٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) [نوح: ١٧، ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسِبُونَ وَجَزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) [النجم: ٣١]. وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) [التغابن: ٧]..

هذه خاتمة ختم بها رسالة الأصول الثلاثة.

تكلم فيها على البعث والحساب والميزان والطواغيت وأنواعها. وذلك ليبين أن الأمر لا ينتهي بمجرد الموت بل هناك بعث وحساب وعذاب وثواب، وأن هناك من يبعد الناس عن طريقهم إلى الله وهم الطواغيت

قوله: وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ:

خص الناس بالذكر لأنهم المكلفون والمحاسبون على أفعالهم، وإلا فالخلائق كلها تبعث كما قال الله سبحانه: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} وخص البعث بالذكر مع أنه ذكر في الأصل الثاني في مرتبة الإيـان لأمرين:

١. لأجل الاهتمام بمسألة البعث والإيـان باليوم الآخر، وقد جد من كان ينكر ذلك في زمن الشيخ في البوادي.

٢. لمناسبة المقام لذكر البعث بعد ذكر موت النبي ﷺ وجميع الناس، فناسب أن يقرر البعث بعد الموت لجميع الناس.

والبعث حق ثابت دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وهو مقتضى—

الحكمة، حيث تقتضي— أن يجعل الله تعالى هذه الخليقة ميعادًا يجازيهم فيه على ما شرعه لهم، قال تعالى: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى):

دليل على أن الله عز وجل يخرج الموتى من هذه الأرض، وذلك في قوله: { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى }.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}: أي مبدأ خلقكم، وهو خلق آدم عليه الصلاة والسلام من الأرض والناس ولد لآدم.

قوله: {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا} يعني: يعيدكم في الأرض إذا متم ودفنتم بها. **وقوله: {وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}:** للحساب والجزاء.

قوله: وَبَعْدَ الْبُعْثِ مُحَاسَبُونَ وَيَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ: أي بعد إخراجهم من قبورهم أحياء بعد النفخة الثانية في الصور، فهم مُحَاسَبُونَ على أعمالهم حسننها وسيئها، وَجْزِيُونَ بِأَعْمَالِهِمْ صغيرها وكبيرها.

فائدة: يستثني من هذا الحساب من ورد الدليل على أنهم لا يحاسبون ومنهم السبعون الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب كما في حديث ابن عباس.

والأنبياء والرسل على الصحيح فإنهم لا يحاسبون إلا على تبليغهم لرسالاتهم أبلغوها أم لا.

قوله: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} أي: يجازي يوم القيامة كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

قوله: وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبُعْثِ كَفَرَ: وذلك لأنه مكذب بالقرآن، ومن كذب بالقرآن فهو مكذب لله تعالى؛ فيحكم بكفره، ومكذب أيضًا للنبي ﷺ؛ لأن النصوص

ثبتت عن الرسول ﷺ بوقوع البعث وهو مخالف لإجماع المسلمين.

قوله: والدليل قوله تعالى: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا }: وجه الدلالة أن الله تعالى كفرهم بإنكارهم البعث وسمى مقالتهم زعمًا؛ فدل ذلك على أن من أنكره فهو كافر.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء: ١٦٥].
وَأَوَّاهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخَرَهُمْ مُحَمَّدٌ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّاهَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) [النساء: ١٦٥].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَخُدَّةِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦].

قوله: وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء: ١٦٥].

في هذه الآية دلالة على أن هؤلاء الرسل مرسلون من ربهم سبحانه وتعالى، فوجب تصديقهم وطاعتهم في كل ما جاءوا به فإنها هم مبلغون عن الله سبحانه وتعالى.

وقد أرسل الله تعالى الرسل لحكم ثلاثة جمعها الله تعالى في هذه الآية وهي:

الأول: إقامة الحجة على العباد.

فلا يقولون يوم القيامة ما أرسلت إلينا رسولا، ما أنزلت إلينا كتابا، فانقطعت حجة الخلق على الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وانقطعت المعذرة ولم يبق للناس على الله حجة.

الثاني: تبشير من أجاہم إلى ما دعوا إليه برضوان الله وكرامته.

الثالث: منذرين ومحذرين من عصاهم من غضب الله وسخطه وعقابه.

قوله: وَأَوَّاهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّاهَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء: ١٦٥].

استدل رحمه الله بذكر نوح أولاً على أنه أول الرسل.

وقد جاء حديث ينص على ذلك وهو ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل وفيه: "فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا".

قوله: وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ:

هو آخر الرسل إلى أهل الأرض بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وهو خاتم النبيين لا نبي بعده والدليل قوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: ٤٠].

وفي حديث ثوبان في سنن أبي داود: "وَأِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي". وصححه الألباني وأجمع المسلمون على ذلك، واشتهر كذب من ادعى النبوة بعده.

وما بين نوح ومحمد ﷺ جمٌ غفير من الرسل؛ ولا بد من الإيمان بهم جميعاً من أولهم إلى آخرهم، فمن جحد رسولا واحداً منهم فهو كافر بالجميع كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

قوله: وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ:

أي أن جميع الأنبياء يدعون أقوامه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه. وأعظم وأول ما دعا إليه جميع هو التوحيد، وهو أعظم ما أرسلت به وما سواه من تحريم وتحليل فروع، ولا يؤمر بها ولا تقبل ولا يلتفت إليها إلا مع التوحيد

الذي هو دين الرسل، من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار.

قوله: وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا}

أي اقتضت حكمة الله ورحمته سبحانه أن يبعث في كل قرن من الناس وطائفة رسولاً يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه.

وقوله سبحانه: {أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} أي فلم يزل تعالى يرسل إلى

الناس الرسل بذلك، من نوح إلى محمد ﷺ، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه.

كما قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥]

وقوله سبحانه: {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}

الطاغوت: اسم لكل معبود من دون الله تعالى، كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة، مأخوذ من طغا يطغى طغيانا إذا جاوز الحد في الضلال.

وَأَفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ.
 قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ
 أَوْ مَتَّبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ. وَالطَّاغُوتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ
 وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ
 حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ
 الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا
 وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: ٢٥٦]. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي الْحَدِيثِ:
 "رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

قوله: وَأَفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ:

أي أن التوحيد لا يتم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له واجتناب الطاغوت.
 والطاغوت في اللغة: مشتق من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى:
 { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [سورة الحاقة، الآية: ١١].
 يعني لما زاد الماء عن الحد المعتاد حملناكم في الجارية يعني السفينة.
 ومعنى الكفر بالطاغوت: هو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها،
 وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم.

ومعنى الإيمان بالله: هو أن تعتقد، أن الله هو الإله المعبود وحده، دون من
 سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب
 أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم.
 وأحسن تعريف له في الاصطلاح ما عرفه ابن القيم.

فقال: الطَّاغُوتُ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ:

وذلك لأن الله عز وجل حدَّ للعبد حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، وألا يتجاوزها، فإذا عصي الله وتجاوز حدوده وطغى فإنه يسمى طاغوتًا.

قوله: مِنْ مَّعْبُودٍ: أي مع الله، بأي نوع من أنواع العبادة، مثل الأصنام.

أَوْ مَتَّبِعٍ: في معاصي الله، مثل الكهان والسحرة وعلماء السوء.

أَوْ مُطَاعٍ: في التحليل والتحريم، بأن يجرم ما أحل الله أو يحل ما حرم الله، مثل

الأمراء الخارجين عن طاعة الله.

قال ابن القيم: ((فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مَنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَوْ يَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ؛ فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ))^(١). اهـ

قوله: ((والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة)): أي بالاستقراء والتأمل.

قوله: إبليس لعنه الله: لأنه الداعي إلى عبادة غير الله تعالى فهو أول الطواغيت.

قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

والمراد بعبادة الشيطان: طاعته؛ فيدخل في ذلك جميع أنواع الكفر والمعاصي؛

لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له.

قوله: "ومن عبد وهو راضٍ" أي من علم أن الناس يعبدونه ويتوسلون به

ويصرفون له شيئاً من أنواع العبادة فرضي بهذه العبادة فهو طاغوت كما قال تعالى:

{وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}.

فخرج بذلك من عبد وهو غير راضٍ كعيسى بن مريم، وعزير.

قوله: "ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه" وهو الذي يدعو الناس إلى عبادته

وتعظيمه، وهذا ينطبق على بعض مشايخ الضلال من الصوفية وغيرهم الذين

(١) ينظر إعلام الموقعين (٤٠/١).

يقرون بالغلو ويفرحون بتعظيم الناس لهم.

قوله: "ومن ادعى شيئاً من علم الغيب" كالمنجمين والعرافين والسحرة الذين يدعون شيئاً من علم الغيب والله جل وعلا يقول: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}. فعلم الغيب لا يكون إلا لله تعالى إلا من شاء الله تعالى من أنبيائه ورسله أن يطلعه على شيء من علم الغيب.

وقوله: "ومن حكم بغير ما أنزل الله": فكل من حكم بغير ما أنزل الله ونصب نفسه حاكماً أو مشرعاً بغير ما أنزل الله فهو طاغوت. لقول الله سبحانه: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}. الحكم بغير ما أنزل الله نوعان:

- ١- من لم يحكم بما أنزل الله استخفافاً به، أو احتقاراً، أو اعتقاداً أن غيره أصلح منه، وانفع للخلق أو مثله فهو كافر كفراً مخرجاً عن الملة.
- ٢- من لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك، ولكن محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم. (١)

قال القرطبي رحمه الله: ((إن حكم به - أي بغير ما أنزل الله - هوى ومعضية فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين)) (٢). اهـ

قوله: "والدليل قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}": أي الدليل على أن الله تعالى

(١) انظر شرح العثيمين على ثلاثة الأصول ص ١٥٧ وما بعدها

(٢) تفسير القرطبي (١٩/٦).

افتراض على العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

العروة الوثقى هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

قوله: وهذا معنى لا إله إلا الله: فإن معنى (لا إله) الكفر بالطاغوت و(إلا الله) إيمان بالله واستسلام لأمره وشرعه.

وبدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله، لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثواب.

قوله: وفي الحديث: "رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".

قال الحافظ ابن رجب: "يَعْنِي بِالْأَمْرِ الدِّينَ الَّذِي بُعِثَ بِهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَقَدْ جَاءَ تَفْسِيرُهُ فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَفِي رَوَايَةٍ: "إِنَّ رَأْسَ هَذَا الْأَمْرِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"، فَمَنْ لَمْ يُقِرَّ بِهِمَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَلَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ". اهـ^(١)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.